

(٣٢)

نظرية الإدارة التربوية

هذه النظرية في الإدارة التربوية ليست هي «النظرية العامة في التربية الدعوية» التي يفترض السياق الموضوعي للكتاب إيرادها في هذا الموضوع، وإنما هي جزء من النظرية العامة، يتكامل مع كتابي الآخر «منهجية التربية الدعوية»، ومع «الرقائق» و«العوائق»، وبعض فصول «المسار»، وبعض «رسائل العين» لتتكون من الجميع «النظرية العامة في التربية الدعوية».

ومن أركان النظرية العامة المبينة في المنهجية: التفنن في المسموع والمنظور لإحداث التأثير التربوي، والأخلاق الإيمانية، والروح الجهادية، والمواد المعرفية، والعلم التطبيقي الذي يقود إلى التوحيد، لكنني أخوض محاولة جريئة غير مسبقة لجعل إحياء الصناعة محور التطوير وأداة الأحاسيس الجهادية، ومن الدعاة مستوعب ومتردد هيأب ملهم.

وتمّ هناك شرح تلك الآفاق، وإنما أركز هنا على جزء من فن التربية تشهد له حركة الحياة وتبينه معالم السنة الغراء، يتجلى في «الإدارة»، بما يحويه من حنان ورفق وتوسط.

تعريف الإدارة وسمتها الملائكي

والتربية كلها إدارة، وتقليب لوجوه التعامل، وذهاب مع الرغبات الفطرية، حتى إذا كاد سلب أن يدّهم: حصل شدّ ومنع. ثم هي حُسن تأت، وتلطّف، وتأنٍ لا يأبى مسارعة إلى خير، ولا يزهد بإبداع، وفيها اعترافٌ بحق، وأخذ بيد، وترميمٌ لصدع، وجبر لانكسار.

قال ابن حجر:

قال ابن بطال: الإدارة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى الألفة (وهي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه،

والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه، ونحو ذلك^(١).

تمييز المداراة عن المداينة

قال ابن حجر عن ابن بطلال: (وظن بعضهم أن المداراة هي المداينة، فغلط، لأن المداراة مندوب إليها، والمداينة محرمة، والفرق أن المداينة من الدهان، وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه، وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بها هو فيه من غير إنكار عليه)^(٢).

بينما المداراة فعلٌ من حكيم يتخذ شعاراً له أن:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وخلال تفسيرها: وضع الرازي قاعدة عامة في المداراة، فقال:

(قيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف).

وقيل: محكمة، لأن المداراة محثوث عليها ما لم تؤد إلى نقصان دين أو مروءة)^(٣).

وواضح ألا دليل على النسخ، وإنما هي عادة المفسرين والفقهاء أن يلهجوا بالنسخ، ومن ثم تبقى القاعدة العامة تعمل: أن المداراة مطلوبة، ما لم تؤد إلى مداينة أو زيادة سطوة الجاهل، مثلاً.

وفي البخاري أنه قيل لأسامة بن زيد رضي الله عنه: ألا تكلم هذا؟، أي عثمان بن عفان رضي الله عنه في شأن أقاربه، فقال أسامة:

(قد كلمته ما دون أن أفتح باباً أكون أول من يفتحه).

قال ابن حجر:

(أي كلمته فيما أشرتم إليه، لكن على سبيل المصلحة والأدب في السر، بغير أن يكون كلامي ما يثير فتنة أو نحوها).

(١) فتح الباري ١٣/١٤٤.

(٢) فتح الباري ١٣/١٤٥.

(٣) تفسيره ٢٣/١٠٣.

ثم قال أسامة: «وما أنا بالذي أقول لرجل بعد أن يكون أميرًا على رجلين: أنت خير».

قال عياض فيما نقله عنه ابن حجر: (فيه ذم مدهانة الأمراء في الحق، وإظهار ما يبطن خلافه، كالمتملق بالباطل. فأشار أسامة إلى المداراة المحمودة والمدهانة المذمومة. وضابط المداراة أن لا يكون فيها قدح في الدين، والمدهانة المذمومة أن يكون فيها تزوين القبيح وتصويب الباطل، ونحو ذلك) (١).

قال ابن حجر: (وفي الحديث: تعظيم الأمراء والأدب معهم، وتبليغهم ما يقول الناس فيهم: ليكنفوا ويأخذوا حذرهم، بلطف وحسن تأدية، بحيث يبلغ المقصود من غير أذية للغير) (٢).

وذم النبي ﷺ عُيينة بن حصن الفزاري، لكنه لقيه بالطلاقة والانبساط، كما في صحيح البخاري، فاستنبط الفقهاء من ذلك جواز المداراة.

نقل ابن حجر عن القرطبي أنه قال: (والفرق بين المداراة والمدهانة: أن المداراة: بذل الدنيا لصالح الدنيا أو الدين، أو هما معًا، وهي مباحة، وربما استحبت. والمدهانة: ترك الدين لصالح الدنيا، والنبي ﷺ إنما بذل له من دنياه، حسن عشرته والرفق في مكالمته، ومع ذلك فلم يمدحه بقول، فلم يناقض قوله فيه فعله، فإن قوله فيه قول حق، وفعله معه حسن حشرة، فيزول مع هذا التقرير الإشكال بحمد الله تعالى).

قال ابن حجر: (قال عياض: لم يكن عيينة والله أعلم حينئذ أسلم، فلم يكن القول فيه غيبة، أو كان أسلم ولم يكن إسلامه ناصحًا، فأراد النبي ﷺ أن يبين ذلك لئلا يغتر به من لم يعرف باطنه، وقد كانت منه في حياة النبي ﷺ وبعده أمور تدل على ضعف إيمانه، فيكون ما وصفه به النبي ﷺ من جملة علامات النبوة. وأما إلانة القول له بعد أن دخل فعلى سبيل التألف له).

قال ابن حجر: (وهذا الحديث أصل في المداراة، وفي جواز غيبة أهل الكفر والفسوق) (٣).

(١) فتح الباري ١٦/١٦٣.

(٢) فتح الباري ١٦/١٦٤.

(٣) فتح الباري ١٣/٦٣.

والقلب يشهد للمدارى، والمداهن مفضوح مهما استعان ببلاغة ومنطق.

بعض الإيحاءات التربوية لبعض الموازين القرآنية

وكما كانت هناك موازين قرآنية في التوثيق، وموازين قبلها تؤسس منطقاً فقهياً عاماً استعرضناه: فإن هناك جمهرة من الموازين لها إيحاء تربوي بليغ، وهى مثلما تشير إلى بعض جوانب نظرية التربية الإسلامية وتُعرّف بها، فإنها أيضاً تصلح أن تكون من موجهات فتوى الفقيه في أمر التربية أو غيرها، وعلى الفقيه أن يستحضرها، إذ هو يُعد فتواه أو إذ هو ينقحها.

✽ فانظر الإيحاء التربوي لميزان: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦]، فهذا الميزان هو من موازين التوثيق، أنه ليس هناك الصافي المحض، لكن انظر إلى معنى الواقعية الذى يتركه هذا الميزان في نفس المربي، ووعظه له أن يسلك بالحسن مع تلميذ له يتعثر.

✽ وانظر الحث الذى يبيده المربي للتلميذ حين يستند إلى ميزان: ﴿فَاسْتَيْقُوا﴾ [الخَيْرَاتِ] [البقرة: ١٤٨]، وتصويره الحياة كأنها ساحة سباق ومنافسة، وإمداده المربي بالدليل على حقه في ذم التباطؤ وسير الهوينى.

✽ وميزان: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] قوى كظاھر لفظه، يمنح المربي سلطة واسعة في شد عضلات تلميذه، يمنعه من التراخي، ويقطع عنه التردد، ويؤسس له حزماً وجزماً.

✽ والتعليل واضح إذا أراد المربي أن يخوض جدالاً منطقياً بالتى هى أحسن مع أتباعه، إذ النذارة تامة في ميزان: ﴿إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَالَ لَا قِيعْلًا﴾ [المزمل]، والثقل في أحد كفتى الميزان يوجب ثقلاً في الهمم والنوايا ومحركات النفس والعزّات والنهضات والخواطر والأمانى والأحلام في الكفة الأخرى، ليتوازى رد الفعل مع الفعل، والجواب مع عمق السؤال، والرعدة مع البرقة، والانفجار مع شدة ومضة شرارة الصاعق.

✽ ولن يكون انطلاق مثل هذا إلى مجهول ومتاهة ووجهة حائرة، وإنما على بصيرة ووتيرة وجدّد فيه معالم، محدّد بخارطة ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، بالمسح المضبوط نحو هدف نعيم منشود.

* لذلك يقوم أمرنا على بحث ونظر وتأمل وسياحة في الأرض فاحصة محللة مقارنة مستنتجة: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت]، وهذه السياحة منهج تربية كامل واف، والداعية أحق من دارون أن يذهب إلى الجزيرة المنفردة النائية في المحيط الهادئ التي احتفظت بالخلق القديم، ليرى كيف بدأ الخلق وكيف كان التطور، لكن عوار عين دارون جعله ينظر الأشباه والنظائر فقط، وعسر عليه أن ينظر الفروق واختصاص الأنفاس الزكية وأحسن التقويم، فقارب، ومدّ يده ليتناوش، فعثر، فانكبج، وفقهنا المربي رصد الفروق كما أحصى الأشباه، فأمن بالله ربّاً، وبالإنسان خليفة، وبالعلم وسيلة، فطفق يربى من معه على سير في الأرض مبصر، وتفكر في الأمر واعٍ، ويقين بنشأة آخرة وبعث ونشور.

* وواقعيته قذفت في منهجه الاعتدال، فلم يقتصر على الكُمل، بل نزل إلى أرض المتورطين يحسن لهم الإنابة، ينادى كل يوم حتى يصحل صوته: ﴿فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة]، يُحْيِي أَمْلاً من بعد قنوط، ويرسم خطة استئناف لمقارف يائس ينتقم من نفسه الخاطئة بانغماس في الذنب.

* لكن المربي القرآني لا يلجأ إلى المنطق في هذا الوضع، إذ في المنطق ببوسة وصرامة، إنها يلاطف ويدغدع العواطف، ويستدرج المسيء إلى ابتسام، فيلقنه التوبة في صورة معاتب مُليّم، ويهمس في أذنه أن ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار]، الودود البر الرحيم، يشجعه، وينسيه في تلك اللحظة أنه المنتقم الجبار العظيم.

* لأن النعمة والجبروت تنصبّ على الكفرة والملاحدة والعتاة، فيُسهب المربي شرح أحوالهم، وحمية الجاهلية التي تسيرهم ﴿وَلَتَسْتَينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام]، ويتضح مفترق الطرق في خارطتنا، فإن المنطق الفقهي الجلي يقول باقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم.

* قائدهم ومقودهم، فالإمام إلى النار، ومدعى الضعف الذي أطاع سادته وكبراء الجهل فأوردوه الردى، إذ أن جُرمه أنه كان طائشاً متعجلاً فاسقاً، تهمة ثابتة بالبيّنة وشهادة الرب سبحانه ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ [الرُحُف]، وتلك ورطته؛ إذ لماذا اختار أن يكون خفيفاً والخيار يعرض له القول الثقيل؟

إذن كن ثقيلاً يوم القيامة راکساً في قعر النار، وليكن المهتدى خفيفاً يخلق في ذرى الجنان، هو الجزاء الوفاق.

فهذه عشرة موازين قرآنية ذات إجماع تروى، هي مثال لعشرات أخرى، نحيلك إلى همتك أن تستقصيها فتغنم.

لتركن طبق السياسة عن طبق أساسيات الحياة

وقبل أن ندارى نحن صاحبنا الذى نداريه: يداريه الله تعالى، وهذه المداراة الربانية هي جزء من الهبات الرحمانية التى تحصل بسبب إيمان المرء، فإن الله عز وجل يهبه المنحة بعد أخرى، فهو في رعاية الله وكلاءة الله، حتى يستقيم ويصلب عوده.

ففى البخارى أن النبى ﷺ قال: «مثل المؤمن كالخامة من الزرع، تُفئها الريح مرة، وتعدلها مرة. ومثل المنافق كالأرزة، لا تزال حتى يكون انجعافها مرة واحدة».

والأرز: شجرة الصنوبر، على الأرجح.

وانجعافها: انقلاعها.

قال ابن حجر: (قال المهلب: معنى الحديثان المؤمن إذا جاءه أمر الله: انطاع له، فإذا وقع له خير: فرح به وشكر، وإن وقع له مكروه: صبر ورجا فيه الخير والأجر، فإذا اندفع اعتدل شاكراً. والكافر لا يتفقده الله باختياره، بل يحصل له التيسير في الدنيا ليتعسر عليه الحال في المعاد، حتى إذا أراد الله إهلاكه: قصمه، فيكون موته أشد عذاباً عليه وأكثر ألماً في خروج نفسه^(١)).

وفى رواية أخرى: «والفاجر كالأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء».

فالمؤمن يتدرج الله معه على طريقة المداراة، تدريجاً له.

وأظهر من هذا: ما يحصل لقادة المؤمنين من الأنبياء عليهم السلام، بالإلهام والقدر الربانى الخفى، فإن الله تعالى يتيح لهم رعى الغنم، ليتعلموا الرأفة والصبر، وليتدربوا على

رعاية البشر، وليتأملوا حكمة الله إذ هم في ظل صخرة، مع الحضرة الفسيحة، في السكون الواعظ.

فعند البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ نجني الكباش، وأن رسول الله ﷺ قال: عليكم بالأسود منه، فإنه أطيبه. قالوا: أكنتَ ترعى الغنم؟ قال: وهل من نبي إلا وقد رعاها!!».

والكباش: ثمر الإذخر.

قال ابن حجر: (والذي يميز بين أنواع ثمر الأراك غالبًا من يلزم رعى الغنم على ما ألفوه).

(والذي قاله الأئمة أن الحكمة في رعاية الأنبياء للغنم ليأخذوا أنفسهم بالتواضع وتعتاد قلوبهم بالخلوة ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم)^(١).

فمن المدارة التربوية لشباب الدعوة إذن: تدريب من تفيد فراستنا أنه سيتولى إمارة أو ولاية مهمة على أداء عمل يضاعف أحاسيس الخير الفطرية فيه، ويمده بالأخلاق الطبيعية العالية، من الصبر والحلم والشجاعة، ليكون بذلك أهلاً حين تكتمل رجولته للأعمال الجليلة والتنفيذ الصعب وحمل الشدائد، وذلكم قياساً على ما ورد في هذه الأحاديث الصحيحة من أن النبي ﷺ رعى الغنم لأهل مكة، وأن الرعى مهنة موسى والأنبياء عليهم السلام.

قال ابن حجر:

(قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعى الغنم قبل النبوة: أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة، لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره، كالسارق، وعلموا اختلاف طبائعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طبائعها وتفاوت عقولها، فجبروا كسرهما، ورفقوا بضعفها، وأحسنوا التعاقد لها، فيكون

تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة، لما يحصل لهم من التدرج على ذلك برعى الغنم. وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل أو البقر، لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقيادًا من غيرها^(١).

فالمداواة حقيقة حيوية إذن، وشاهد قَدَرى يشهد لاجتهادنا، وأرى أن نقيس على رعى الغنم: المهن التي هي أساس الحياة، فإن إتقان المراء لمهنته قرينة على إمكان إتقان عمله الدعوى أيضًا، وإنما تكون الرحمة الناتجة عن رعى الغنم مثال لحاجة السياسي، وإلا فإنه محتاج لصلابة وقوة تربى النار مع الطرق كل حداد عليها، ولجمليات يربى الزرع كل فلاح عليها، ودقّة تربى المقاييس كل مهندس عليها، وأما العاطل فيربيه الفراغ على الوسائس، ولذلك كان خير الدعاة: العصامي الكاذ المتوكل، وأبطأ الدعاة: ابن المترفين المتواكل، في الأعم الأغلب.

القاطرة...!

وأستاذة التربية يدركون هذه الظواهر الحيوية، فيجمعون لأنفسهم أنواعًا من الطباع والأخلاق عبر شمول الثقافة والممارسة من أجل أن يتيح لنفسه التكيف مع حال كل تلميذ، وذلك معنى ما وصفوا به علقمة بن قيس النخعي حين قالوا: (كان علقمة مع البطيء، ويُدرّك السريع)^(٢).

وهذا ينتج من السيطرة والتمكن والعلو فوق المشكلات والترقى فوق مستويات الناس، بالخصوصية العلمية والنفسية التي هي منحة ربانية للقياديين أولاً، ثم هي تدريب وانتباه وسؤال وفحص وتحليل وتركيز نظر، بحيث لا تلهيه الصور والمرئيات والخارجيات والطلاء، وإنما يغوص في الأعماق، ويخترق، ليعرف سر حركة الحياة، بما معه من ليزر، وهذا هو سبب تمكنه من السير المزدوج بالسيرين معًا في الآن الواحد، إذ إنه يوازي السريع، ولا يليق له إلا ذلك، ويعيبه أن يكون في الصف المتأخر، لكنه إنما يمد يده إلى خلف إذ هو في سيره الطموح إلى قدام، فيصافح بها البطيء، يسحبه ويجره معه.

(١) فتح الباري ٥/ ٣٤٨.

(٢) المجالسة لأبي بكر الدينوري ١/ ٣٥٧.

وهذا أحد أسرار بركة العمل الجماعي التي لا يفتن لها إلا من تمتع بها وغمرته وأثرعته، لأن الإبطاء قد لا يكون من ضعف وعلة لازمة، وإنما يكون أيضًا من فتور بعد الشّرة، فإذا كانوا رهطاً واعترت أحدهم الفترة المحتومة على كل نفس بشرية: مَدّ متقدم يده إلى خلف، فربط الفاتر، فيظل يجذبه حتى تنجلي الغمامة فيستقيم في السير ذاتياً ثانية كما كان، ولذلك لن يكون تفرد الثقات عن العمل الدعوى الجماعي إلا عن وهم وقلة إدراك لهذه الظاهرة في «الميكانيك الدعوى»، يظنون أن مستواهم فوق الاحتياج لهذه المصافحة الخلفية، بل ذلك غرور منهم ينبغي أن يتوبوا منه فوراً، إذ ليس أحد فوق ظاهرة الفترة، كان ذلك في قَدَر ربك على النفس الإنسانية حتّى مقصياً، كما أخبر الإمام أحمد في أكثر من موضع من المسند بأسانيد ذكر أحمد محمد شاكر أنها صحيحة: قوله ﷺ: «إن لكل عمل شِرة، ولكل شِرة فترة، فمن كانت شرته إلى سنتي فقد أفلح، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك»^(١).

والشّرة: النشاط.

قال ابن القيم: (فالتّالِب الجاد لا بد أن تعرض له فترة، فيشتاق في تلك الفترة إلى حالة وقت الطلب والاجتهاد.

ولما فتر الوحي عن النبي ﷺ كان يغدو إلى شواهِق الجبال ليلقى نفسه، فيبدو له جبريل عليه السلام فيقول له: إنك رسول الله، فيسكن لذلك جأشه، وتطمئن نفسه.

فتخلل الفترات للسالكين: أمر لازم لا بد منه، فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تدخله في محرم: رَجَى له أن يعود خيراً مما كان.

قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وأرضاه: إن لهذه القلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل، وإن أدبرت فألزموها الفرائض.

وفي هذه الفترات والغيوم والحُجب التي تعرض للسالكين من الحكم ما لا يعلم تفصيله إلا الله، وبها يتبين الصادق من الكاذب، فالكاذب ينقلب على عقبيه، ويعود إلى رسوم طبيعته وهواه.

والصادق ينتظر الفرج، ولا ييأس من روح الله، ويلقى نفسه بالباب طريقاً ذليلاً مسكيناً مستكيناً^(١).

رفق... لا فظاظة

وفي هذه التقارير ما يوجب رفق المربي بتلاميذه، إذ ربما لا يكون العيب الذي يدر منهم غير عَرَضٍ جانبي من أعراض الفتور، وأن لو رجعوا إلى حالهم من اليقظة والنشاط لما تلبسوا به.

* وفي جامع الترمذي أن عبّاد بن بشر وأسيد بن حُضير رضي الله عنهما سألا رسول الله ﷺ سؤالاً، فقال له وجه النبي ﷺ، أى تغير وجهه من قولهما، حتى ظنا أنه غضب عليهما، فاستقبلتهما هدية من لبن، فأرسل رسول الله ﷺ فسقاها، فعلما أنه لم يغضب^(٢).

* وذكر صديق حسن خان من وظائف المعلم: (أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الإصرار)^(٣).

* وللإمام ابن حزم كلام جيد في هذا الباب ذكره في كتابه النادر (الأخلاق والسير).

قال رحمه الله:

(الإتساء بالنبي ﷺ في وعظ أهل الجهل والمعاصي والرذائل واجب، فمن وعظ بالجهل والاكفهرار فقد أخطأ وتعدى طريقته ﷺ وصار في أكثر الأمر مغرياً للموعوظ بالتبادى على أمره لجأجا، وحرذاً ومغاظة للواعظ الجافي، فيكون في وعظه مسيئاً لا محسناً.

ومن وعظ ببشر وتبسم ولين وكأنه مشير برأى ومخبر عن غير الموعوظ بما يستفتح من الموعوظ: فذلك أبلغ وأنجع في الموعظة، فإن لم يتقبل فلينتقل إلى الموعظة بالتحشيم وفي الخلاء، فإن لم يقبل ففي حضرة من يستحي منه الموعوظ، فهذا أدب الله في أمره بالقول واللين.

(١) المدارج ٣/١٢٦.

(٢) التاج الجامع للأصول ٤/٥٥.

(٣) أبجد العلوم ١/٧٩. متابعا في ذلك الغزالي.

وكان ﷺ لا يواجه بالموعظة، لكن كان يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا؟، وقد أثنى عليه الصلاة والسلام على الرفق وأمر بالتيسير ونهى عن التنفير، وكان يتخول بالموعظة خوف الملل، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وأما الغلظة والشدة فإنما تجب في حد من حدود الله تعالى، فلا لين في ذلك للقادر على إقامة الحد خاصة.

ومما ينبج في الوعظ أيضًا: الثناء بحضرة المسى على من فعل خلاف فعله، فهذا داعية إلى عمل الخير. وما أعلم حب المدح فضلاً إلا هذا وحده، وهو أن يقتدى به من يسمع الثناء، ولهذا يجب أن تؤرخ الفضائل والردائل لينفر سامعها عن القبيح المأثور عن غيره، ويرغب في الحسن المنقول عمن تقدمه ويتعظ بها سلف^(١).

* والقائد يعاقب، لكن في الحدود التي لا يجرح فيها شعور الجندي، وبدون أن يحمل على الطاعة مع المضض. ذلك أن رسول الله ﷺ لما أعطى رأيه كتيبته الخضراء يوم الفتح إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه، وقال سعد لأبي سفيان لما مرّ به، يا أبا سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً. فشكا أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ قول سعد، فأجابه الرسول: يا أبا سفيان: اليوم يوم الرحمة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً. وأرسل إلى سعد فعزله وجعل اللواء - في رواية - إلى ابنه قيس بن سعد بن عبادة^(٢).

ألا ترى أن النبي ﷺ لم يرد أن يجرح فرحة سعد بيوم النصر بإعطاء الراية لغريب فأعطاه لابنه؟

والرفق يسرى حتى فيما إذا صدر من الجندي ما يدل على عدم اقتناعه بخطة القائد ما دام مطيعاً لها، يدل على ذلك أن الرسول ﷺ لم يؤنب عمر بن الخطاب حين بدا منه ما يدل على عدم اقتناعه ورضاه بصلح الحديبية.

تحويل التلميذ عن الاهتمامات المرجوحة

وروى أنس رضي الله عنه أن سائلاً سأل النبي ﷺ: متى الساعة؟ فلم يجبه، ولكن حوّل السؤال فقال له: ما أعددت لها؟

(١) الأخلاق والسير لابن حزم / ٦٧.

(٢) إمتاع الأسباع للمقرئزي ١/ ٣٧٥، وفتح الباري ٧/ ٦١٠.

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: في حديث أنس جواز سكوت العالم عن جواب السائل والمستفتى إذا كانت المسألة لا تُعرف، أو كانت مما لا حاجة للناس إليها، أو كانت مما يخشى منها الفتنة أو سوء التأويل)^(١).

وقال ابن حجر في موضع ثان: (قال الكرمانى: سلك مع السائل أسلوب الحكيم، وهو تلقى السائل بغير ما يطلب، مما يهمله، أو هو أهم)^(٢).

فهذا نمط آخر من المداراة والأسلوب التربوي: أن لا يسترسل المربي مع الاهتمامات المرجوحة التي تسيطر على التلميذ، بل يوجهه إلى ما هو أنفع له، ويكون المربي هو السائل، وهو الذى يبدأ.

وأكثر ما يكون ذلك في المرحلة الأولى من حياة الداعية، إذ لم يكتمل فقهه بعد، ويكون ما يزال واقعا تحت تأثير الإعلام العام، ولا يميز أولويات العلم والوعى، ولذلك فإن من مهمات المنهج التربوى الجماعى ألا يعطيه حشداً من المعلومات فقط بل يوجه اهتماماته ويدربه على حسن السؤال، وإنما تتكفل بذلك فصول تحليلية في المنهج تخرج عن السرد ونقل الخبر وجزيئة العلم إلى ملاحظات نقدية للواقع الإسلامى والواقع العام، تعين مواطن الخلل، ما كان منه فعولج، أو ما لا زال ينتظر العلاج، وبذلك تكون اهتمامات الدعاة، والجدد بخاصة، مُجدولة مرتبة ذات مغزى، ولها أول وآخر، وليست مجرد ارتجال. لكن الدراسات التى يتضمنها المنهج غالباً ما تكون فى كتبٍ وبلسان الإطلاق والتعميم، وليس كل أحد يقدر على تخصيص العام والقياس بموجه، ولذلك ينبغى لأساتذة التربية أن يردفوا المقدار الثابت من المنهج بمقدار متحرك أنى متكيف، يتمثل فى نشرات صغيرة إخبارية وتحليلية نقدية، تُتابع الأحداث، لا السياسى منها فقط، بل الاجتماعى والاقتصادى والثقافى، بحيث نكون مع تطور الحياة واسترسالها دوماً، لنقطع طريق تأثير الجديد والنصير بأقوال غيرنا، وتلك هى مهمة الصحافة فى الحقيقة إن كانت متاحة، فإن لم تكن فالنشرات بديل.

(١) فتح البارى ١٦/٢٥٠.

(٢) فتح البارى ١٣/١٧٩.

ومن المدارة: أن نمهّد للأُمور المهمّة

والأُمور المهمّة العظيمة لا بد أن يسبقها تمهيدات تربوية وتدرجات في الأمر بها، وللدعاة موعظة فيما كان حين بدء النبوة الكريمة.

نقل ابن حجر عن الإسعيلي قال: (إن عادة الله جرت بأن الأمر الجليل إذا قضى بإيصاله إلى الخلق أن يُقدّمه ترشيح وتأسيس، فكان ما يراه النبي ﷺ من الرؤيا الصادقة ومحبة الخلوة والتعبّد: من ذلك.

فلما فجّاه الملك: فجّاه بغتة أمرٌ خالف العادة والمألوف، فنفر طبعه البشري منه وهاله ذلك، ولم يتمكن من التأمل في تلك الحال، لأن النبوة لا تزيل الطباع البشرية كلها، فلا يُتعبّج أن يجزع مما يألفه وينفر طبعه منه، حتى إذا تدرّج عليه وألفه: استمر عليه، فلذلك رجع إلى أهله التي ألف تأنيسها له، فأعلمها بما وقع له، فهوّت عليه خشيته، بما عرفت من أخلاقه الكريمة وطريقته الحسنة^(١).

وكان تحويل القبلة أحد هذه الأُمور العظيمة أيضًا، وسبقه ذكر البيت الحرام وبناء إبراهيم عليه السلام له، في تدرّج ذكره ابن القيم نقلناه في المسار.

ومن الانعطافات المهمّة في حياة الداعية التي تحتاج تدريجًا وشيئًا من الإسهاب في التعليم: طلب البيعة من أول مرة، وحضور الانتخابات أول مرة، إذ يذكر له فقه الشورى، وعند اختياره ليترشح كممثل عن الدعوة في البرلمان، فكل ذلك مما يلزمه تفهيم وإعداد نفسى.

تعالوا بنا نسمر عند القائد ليلة

ومن قصص المدارة التربوية الواضحة: ما فعله النبي ﷺ مع جابر بن عبد الله الأنصارى من مساومته له على بيعه، وما كان من شرائه منه، ثم وهبه الجمل له، كما في صحيح البخارى.

قال ابن حجر: (وفيه تفقّد الإمام والكبير لأصحابه، وسؤاله عما ينزل بهم، وإعانتهم بما تيسر من حال أو مال أو دعاء)^(٢).

(١) فتح البارى ١٦/١٣.

(٢) فتح البارى ٦/٢٥٠.

وعند البخارى أنه لما بات ابن عباس حين كان صبيًا عند خالته أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها وقام النبي ﷺ يتعجد وقام معه ابن عباس: أخذ النبي ﷺ أذن ابن عباس يفتلها.

قال ابن عباس: (فعرفت أنه إنما صنع ذلك ليؤنسنى بيده في ظلمة الليل).

قال ابن حجر شارحًا ما في ذلك من الفوائد:

(وفيه الملاطفة بالصغير والقريب والضيف، وحسن المعاشرة للأهل، والرد على يؤثر

دوام الانقباض) ^(١).

وفي هاتين القصتين وما يقتبس منهما من الهدى النبوى الشريف للمربي والداعية الرئيس ما يوضح أن الإمارة الدعوية ليست رئاسة عسكرية، ولا تؤدى بالحشمة الدائمة العابسة التى توصف للقضاة، وإنما هى بصحبة الأقران أشبه، وتؤدى بالبشاشة والبسات، والسماحة والملاطفة، وكأن الجميع شباب قرية تقاربوا فى السن، فصارت حركتهم مثل كتلة واحدة، يقومون ويقعدون، ويسمرون ويتندرون، معًا لا يشعر أحدهم بفوقية، وإذا صاد أحدهم حمامة صغيرة: شووها وأكلوا منها جميعًا حتى لو كانوا عشرين، فتكون عندهم كأنها وليمة تامة.

بل هو خلق النبي ﷺ.

قال البخارى:

باب : الطعام عند القدوم، وكان ابن عمر يُقَطِّرُ لمن يغشاه.

وأخرج حديث جابر أن النبي ﷺ لما قدم المدينة من غزوة (أمر ببقرة فذبحت فأكلوا منها).

قال ابن حجر:

(قال ابن بطلال: فيه إطعام الإمام والرئيس أصحابه عند القدوم من السفر، وهو

مستحب عند السلف، ويسمى النقيعة، بنون وقاف، وزن عظيمة) ^(٢).

(١) فتح البارى ٣/ ١٣٦، ١٣٨.

(٢) فتح البارى ٦/ ٢٢٤، طبعة السلفية.

وأنا أحب لأمرء الدعوة ذلك، وأن يقدموا لإخوانهم الحلوى، والفاكهة، والهدايا، وأن يدعوا إخوانهم في مرح وفرح، فإن الأحران كثيرة، وكاد فرط الجدل أن يكون رهقاً، كما أحب لقائد الدعوة في كل قطر أن يظهر لأصحابه وللناس يوماً في الأسبوع في دار استقبال دعوية ذات قاعة واسعة، فيذبح ويولم ذلك اليوم وتعين له الجماعة طبائخاً ومعاونين، ويكون يوم مهابة ممزوجة بفرح، وتتعشى عنده في ذلك اليوم الوفود الزائرة للبلد، ورجال الصحافة والنبلاء، وتلقى القصائد بين يديه، وكان يزيد بن هارون شيخ الإمام أحمد على هذه الهيئة، وله مجلس وديوان في مدينة واسط، وكان يسمى ملك المحدثين، ومن شعرائه: على بن الجهم. وكان قتيبة بن سعيد شيخ البخاري على هذا النمط، وأولم في قريته مرة عشرة آلاف، ومن لا يفهم حركة الحياة هو الذي ينكر ذلك ويختلط عليه معنى الزهد والنسك مع هذا المعنى فيحار، لأنه لا يدري كيف تؤسس العلاقات وتُدار، ولا كيف تُصنع الأخبار.

تفقد الحالة النفسية للأتباع

والمربي والقائد يجب أن يتتبع تطور نفسية تلاميذهما أو جنودهما، فيعالجها إذا انكسرت، ويوضحا لهم ما يذهب بالشكوك والظنون.

ألا ترى الرسول ﷺ التفت التفاتة تربوية دقيقة في غزوة حنين لما طرق سمعه اعتراض الأنصار رضوان اللهم عليهم على تقسيمه الفئ وإعطاء المؤلفة قلوبهم منه، فجمعهم وخطب فيهم وعالج نفسياتهم وبين لهم عظم حبه لهم، حتى وصل ذلك الأوج حين قال: (ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خيراً مما ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امرأة من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وواديّاً وسلكت الأنصار شعباً وواديّاً لسلكت شعب الأنصار وواديّاً) فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً^(١).

وإذا لمس المربي عند بعض تلامذته شكوكاً أو ظناً بإخوانهم الآخرين فليبين لهم،

(١) والقصة عند البخاري، راجع فتح الباري ٦٤٨/٧، والمقرئ في إمتاع الأسعاع ٤٣١/١.

فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان في غزاة فقال: إن أقوامًا بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا فيه.... حبسهم العذر ^(١).

فبيان أعدار المتخلفين واجب كي لا يحتقرهم الحاضرون المنفذون.

الداعية يُدارى نفسه

والداعية ينبغي أن يدارى نفسه وتدرج معها ويوغل في الدين برفق، لئلا يسأن من بعد.

* ورأى ابن حجر رحمته الله أن قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل وأبي رضي الله عنه «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاولا» يفيد معاني التدرج التربوي في تدريب النفس فقال:

(في الحديث: الأمر بالتيسير في الأمور والرفق بالرعية، وتحبيب الإيذان إليهم، وترك الشدة لئلا تنفر قلوبهم، ولا سيما فيمن كان قريب العهد بالإسلام، أو قارب حد التكليف من الأطفال، ليتمكن الإيذان من قلبه ويتمرن عليه. وكذلك الإنسان في تدريب نفسه على العمل إذا صدقت إرادته: لا يشدد عليها، بل يأخذها بالتدريج والتيسير، حتى إذا أنست بحالة ودامت عليها: نقلها لحال آخر وزاد عليها أكثر من الأولى، حتى يصل إلى قدر احتياها، ولا يكلفها بما لعلها تعجز عنه) ^(٢).

وهذا هو المعنى الأظهر في المداراة، ويصلح قوله هذا في التدريب كتعريف للمداراة، ويتقوى معنى التدرج هذا بحديث «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق»، وأمثاله.

* وفي البخاري: (إن كان النبي ﷺ ليقوم أو يصلي حتى ترم قدماه).

ومال ابن بطلال استنادًا إلى هذا الحديث إلى (أخذ الإنسان على نفسه بالشدة في العبادة وإن أضر ذلك ببدنه).

لكن ابن حجر استدرك فقال:

(محل ذلك ما إذا لم يفض إلى الملل، لأن حال النبي ﷺ كانت أكمل الأحوال، فكان

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما. نقلًا عن التاج الجامع للأصول ٤/ ٣٠٥.

(٢) فتح الباري ١٦/ ٢٨٦.

لا يمل من عبادة ربه، وإن أضر ذلك ببدنه، بل صح أنه قال: وجعلت قرة عيني في الصلاة، كما أخرجه النسائي من حديث أنس. فأما غيره عليه السلام فإذا خشي الملل. لا ينبغي له أن يكره نفسه وعليه يحمل قوله عليه السلام: خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا^(١).

وأكد ابن حجر وغيره هذا المعنى في التعقيب على ما في صحيح البخاري من أن (أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام)، وأحب الصيام إلى الله صيام داود. كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يومًا ويفطر يومًا).

قال ابن حجر: (إنما صارت هذه الطريقة أحب من أجل الأخذ بالرفق للنفس التي يُحشى منها السّامة. وقد قال عليه السلام: إن الله لا يمل حتى تملوا. والله يحب أن يديم فضله ويوالي إحسانه، وإنما كان ذلك أرفق؛ لأن النوم بعد القيام يريح البدن ويذهب ضرر السهر وذبول الجسم، بخلاف السهر إلى الصباح. وفيه من المصلحة أيضًا استقبال صلاة الصبح وأذكار النهار بنشاط وإقبال، وأنه أقرب إلى عدم الرياء لأن من نام السدس الأخير أصبح ظاهر اللون سليم القوى، فهو أقرب إلى أن يخفى عمله الماضي على ما يراه. أشار إلى ذلك ابن دقيق العيد).

ثم ذكر (الاقتصاد في العبادة وترك التعمق فيها، لأن ذلك أنشط، والقلب به أشد انشراحًا)^(٢).

* ويصل التسهيل على الجديد إلى درجة ترك النوافل، كما في الحديث الصحيح، لما علم النبي عليه السلام الأعرابي أركان الإسلام قال الأعرابي: «والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا. فلما ولى قال النبي عليه السلام: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا».

قال القرطبي فيما نقله ابن حجر عنه: (في هذا الحديث، وكذا حديث طلحة في قصة الأعرابي وغيرها دلالة على جواز ترك التطوعات، لكن من داوم على ترك السنن: كان ناقصًا في دينه. فإن كان تركها تهاونًا بها ورغبة عنها: كان ذلك فسقًا، يعني لورود الوعيد عليه، حيث قال النبي عليه السلام: «من رغب عن سنتي فليس مني»، وقد كان صدر الصحابة

(١) فتح الباري ٣/ ٢٥٧.

(٢) فتح الباري ٣/ ٢٥٨، ٢٥٩، وكرر ذلك في ٣/ ٢٧٩.

ومن تبعهم يواظبون على السنن مواظبتهم على الفرائض ولا يفرقون بينهما في اغتنام ثوابها، وإنما احتاج الفقهاء إلى التفرقة لما يترتب عليه من وجوب الإعادة وتركها، ووجوب العقاب على الترك ونفيه، ولعل أصحاب هذه القصص كانوا حديثي عهد بالإسلام فاكتفى منهم بفعل ما وجب عليهم في تلك الحال لثلا يثقل ذلك عليهم فيملوا، حتى إذا انشروا صدورهم للفهم عنه والحرص على تحصيل ثواب المندوبات: سهلت عليهم^(١).

✽ وأما المتوغل فيجهد نفسه ويستريح، ويشد ويرخي.

ففي البخاري: قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه:

(قال لي رسول الله ﷺ: ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصلّي النهار؟ قلت: أفعل ذلك. قال: فإنك إذا فعلت هجمت عينك ونفثت نفسك. وإن لنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً، فصم وافطر، وقم ونم).

قال ابن حجر: (فيه تعليل الحكم لمن فيه أهلية ذلك)^(٢).

أى لمن يستوعب.

فمن حسن التربية: تعليل الأوامر، وبيان فقه الأحكام وطريق التدرج التربوي وسببه والحكمة فيه، وأخذ الراحة بين كل جدين، والجدين راحتين.

✽ وعند البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السامة علينا».

قال ابن حجر: (يستفاد من الحديث استحباب ترك المداومة في الجد في العمل الصالح خشية الملل، وإن كانت المواظبة مطلوبة، لكنها على قسمين: إما كل يوم مع عدم التكلف، وإما يوماً بعد يوم، فيكون يوم الترك لأجل الراحة، ليقبل على الثاني بنشاط. وإما يوماً في الجمعة، ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، والضابط: الحاجة، مع مراعاة وجود النشاط)^(٣).

(١) فتح الباري ٧/٤.

(٢) الفتح ٢٨١/٣.

(٣) فتح الباري ١٧٢/١.

* وروى البخارى أيضًا أن سلمان نهى أبا الدرداء رضي الله عنه عن قيام أكثر الليل، وأجازه أن يقوم آخره، وذكر له من الأسباب التي حملته على ذلك: (ولأهلك عليك حقًا)، ثم صدقه النبي ﷺ.

قال ابن حجر: (فيه جواز النهي عن المستحبات إذا خشى أن ذلك يفضي إلى السامة والملل وتفويت الحقوق المطلوبة الواجبة والمندوبة الراجح فعلها على فعل المستحب المذكور، وإنما الوعيد الوارد على من نهى مصليًا عن الصلاة مخصوص بمن نهى ظلمًا وعدوانًا) ^(١).

* حتى ليكون من المداراة: الزجر، بترك المربي تلامذته يفعلون ما نهاهم عنه إذا جادلوا أو تأخروا في الطاعة، ليرهقهم بذلك، فيكون في الإرهاق درس لهم واتعاظ، وذلك يعني أن المداراة ليست دائمًا تميل إلى التسهيل والتخفيف، بل هي تشديد أيضًا، لتحقيق المقصود التربوي عبر الحرج الذي سيقع عليهم.

من ذلك: أن الصحابة رضي الله عنهم لما أبوا أن ينتهوا عن وصال يومين في الصوم: واصل بهم النبي ﷺ يومًا ثم يومًا، ثم رأوا هلال شوال، فقال: «لو تأخر لزدتكم»، كالتمكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا.

قال ابن حجر: (أما مواصلته بهم بعد نهيه فلم يكن تقريرًا، بل تقريرًا وتنكيلًا، فاحتمل منهم ذلك لأجل مصلحة النهي في تأكيد زجرهم، لأنهم إذا باشروه: ظهرت لهم حكمة النهي، وكان ذلك أدعى إلى قلوبهم، لما يترتب عليهم من الملل في العبادة والتقصير فيما هو أهم منه وأرجح، من وظائف الصلاة والقراءة وغير ذلك، والجوع الشديد ينافي ذلك). ^(٢)

ويلاحظ أن مبنی الشريعة قد قام ابتداء على مراعاة قدرة المكلفين، وعلى التخفيف، ولذلك قال البخارى في باب الوصال: (وما يكره من التعمق في الدين).

قال ابن حجر: (والتعمق: المبالغة في تكليف ما لا يكلف به. وعمق الوادى قعره). وأشار إلى أن البخارى أخرج حديثًا فيه ذكر هذا التعمق، وهو قوله ﷺ: «لو مدبى الشهر لواصلت وصالا يدع المتعمقون تعمقهم».

(١) فتح البارى ٥/ ١١٥.

(٢) فتح البارى ٥/ ١٠٨.

ومن هنا فإن في فتاوى التسهيل كلها مداراة تجري مع مجرى الشريعة هذا، ومذهب القرضاوى في التيسير كله كذلك مداراة.

التعادل أولى..!

وهذا التوازن في العمل إنما يكون إذا توازنت النفس.

ومن تمام معنى المداراة التربوية: التعادل بين الخوف والرجاء، لئلا يطغى أحدهما فيختل وضع المؤمن...

ومن ذلك ما (روى الطبراني وغيره: أن كعب الأبحار جعل يذكر نعيم الجنة فلما فرغ قال عمر:

ويحك يا كعب، هذه القلوب قد استرسلت، فاقبضها.

فقال كعب: والذي نفسى بيده، إن لجهنم يوم القيامة لزفرة..^(١).

ثم أفاض في ذكر العذاب.

والقياس: أن يستطرد هذا المذهب العمرى في الفقه التربوى في الحالات المعاكسة أيضًا فيدع الواعظ القلوب تسترسل في رجائها إذا رأى خوفها زائدًا.

ووصف ابن الجوزى علاجًا عامًا ووضع معادلة له فقال:

(ينبغي أن يقاوم المرض بضده.

فمن كان قاسيًا شديد القسوة، وليس عنده من المراقبة ما يكفه عن الخطأ، قاوم ذلك بذكر الموت ومحاضرة المحترزين.

فأما من قلبه شديد الرقة فيكفيه ما به، بل ينبغي له أن يتشاغل بما ينسيه ذلك لينتفع بعيشه، وليفهم ما يفتى به، وقد كان الرسول ﷺ يمزح ويسابق عائشة رضي الله عنها ويتلطف بنفسه^(٢).

(١) عن عقود اللؤلؤ / ١٧٦، لإبراهيم آل عبد المحسن.

(٢) صيد الخاطر / ١٤٥.

ولكن من منا اليوم من لم تجعل هذه المدنية الحاضرة قلبه قاسيًا شديد القسوة.

وهنا في مثل هذا الموطن يبرز سؤال عند الفقهاء لهم ولع به، وأخذهم عنهم ابن رجب الحنبلي وأجاب، فالعمل عنده يتقاسمه: (رجلان: أحدهما ارتاضت نفسه على الطاعة، وانشرت بها وتنعمت وبادرت إليها طوعية ومحبة، والآخر يجاهد نفسه على تلك الطاعات ويكرهها عليه، أيها أفضل؟

قال الخلال: كتب إلى يوسف بن عبد الله الإسكافي: حدثنا الحسن بن علي بن الحسن، أنه سأل أبا عبد الله عن الرجل يشرع له وجه بر فيحمل نفسه على الكراهة، وآخر يشرع له فيُسِر بذلك، أيها أفضل؟

قال: ألم تسمع النبي ﷺ يقول: من تعلم القرآن وهو كبير يشق عليه فله أجران. وهذا ظاهر في ترجيح المكروه نفسه، لأن له عملين، جهادًا وطاعة أخرى، ولذلك له أجران. وهذا قول ابن عطاء وطائفة من الصوفية من أصحاب أبي سليمان الداراني.

وعند الجنيد وجماعة من عباد البصرة: أن الباذل لذلك طوعًا ومحبة أفضل، وهو اختيار الشيخ تقي الدين^(١)، لأن مقامه في طمأنينة النفس أفضل من أعمال متعددة، ولأنه من أرباب المنازل والمقامات، والآخرين أرباب السلوك والبدايات، فمثلها كمثلي رجلين أحدهما مقيم بمكة يشتغل بالطواف والآخر يقطع المفاوز والقفار في السير إلى مكة فعمله أشق والأول أفضل، والله أعلم^(٢).

وأنا لست أشك في أن الذي انشرت نفسه للطاعة أفضل، إذ أن هذا الانشراح قرينة على أن الله يعينه به، بصفاء قصده، ولكني أرى أن نتجاوز هذه المحاكمة لنقرر المجاهدة وإكراه النفس كطريق تربوي صحيح للاستدراك يتجانس مع منطق المدارة، والمنهج التربوي الدعوى لا يدع الداعية الضعيف وقدره، بل يجعله يصارع القدر بالقدر ولو شق عليه ذلك وشعر بالكراهة، إذ أنه إذا ظل يدأب ويقسر نفسه الكسولة فعما قريب يرجي له أن يعتاد ويلتذ، وذلك هو الفقه الذي يلحظه اجتماع الدعاة للتهجد معًا، إذ يتقوى الجديد بمن سبقه.

(١) أي ابن تيمية شيخه.

(٢) القواعد لابن رجب / ٢٣.

التربية تجري مع الرغبات والحاجات النسبية لكل داعية

* لكن الإكراه التربوي له حدود يفهم بها، وينبغي ألا يتحول إلى تعذيب نفسى يؤدي إلى نتيجة معاكسة إذا زاد، إذ النفس تجزع، ولا بد أن نفهم الأمر بالحسنى وفق مفاد النسبية والتعادل، والحجة الفقهية في ذلك تكمن في أن أشكال الخير التى أقرها الشرع عديدة، وللجنة أبواب ما هو بباب واحد، ومن الممكن أن نسترسل مع رغبة المتربى وميله الذاتى إذا كان متوافقاً مع أحد هذه الأشكال.

قال ابن تيمية:

(لا بد من الإيمان الواجب، والعبادة الواجبة، والزهد الواجب).

ثم الناس يتفاضلون في الإيمان كتفاضلهم في شعبه، وكل إنسان يطلب ما يمكنه طلبه، ويقدم ما يقدر على تقديمه من الفاضل.

والناس يتفاضلون في هذا الباب.

فمنهم من يكون العلم أيسر عليه من الزهد.

ومنهم من يكون الزهد أيسر عليه.

ومنهم من تكون العبادة أيسر عليه منهما.

فالمشروع لكل إنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا

أَسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وإذا ازدحمت شعب الإيمان: قدم ما كان أرضى الله وهو عليه أقدر، فقد يكون على المفضل أقدر منه على الفاضل، ويحصل له أفضل مما يحصل من الفاضل، فالأفضل لهذا أن يطلب ما هو أنفع له، وهو في حقه أفضل ولا يطلب ما هو أفضل مطلقاً إذا كان متعذراً في حقه^(١).

فمن الخطأ إذن أن يجرى المربى مع رغبته هو في عمل معين يجد من نفسه نشاطاً فيه وإليه ميلاً، وإنما يدع تلميذه يتخير من أنواع الخير ما يصادف رغبته، ولا يمنع هذا أن

يعينه المربي على أن يعرف نفسه على حقيقتها، ثم على أن يختار، ثم الجديد قد لا يحسن اكتشاف ذاته وقابلياته، ويمكن أن تملكه عاطفة طارئة متوقدة إلى طريق لا قبل له به.

✽ ومثلما تجرى التربية مع الرغبات بشكل نسبي: تجرى نسبياً أيضاً مع حاجات المتربي، بحيث نراعى سد نقصه، وكذلك تجرى نسبياً في صورة ثالثة مع حاجات الظرف والمرحلة، وهذا فن نبوى أصيل كان المستعجلون يظنون أنه من ابتكارات التربية الحديثة.

قال العز بن عبد السلام: (قد سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ فقال: بر الوالدين).

وسئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: الصلاة لأول وقتها.

وسئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: حج مبرور.

وهذا جواب لسؤال السائل، فيختص بما يليق بالسائل من الأعمال، لأنهم ما كانوا يسألون عن الأفضل إلا ليتقربوا به إلى ذي الجلال، فكأن السائل قال: أي الأعمال أفضل لي؟

فقال: بر الوالدين. لمن له والدان يشتغل برهما. وقال لمن يقدر على الجهاد لما سألته عن أفضل الأعمال بالنسبة إليه: الجهاد في سبيل الله. وقال لمن يعجز عن الحج والجهاد: الصلاة لأول وقتها.

ويجب التنزيل على مثل هذا، لئلا يتناقض الكلام في التفضيل^(١).

وفهم النووي - فيما نقله ابن حجر عنه - من تعيين النبي ﷺ لصلوة الرحم جواباً للسائل أنه قد: (خص هذه الخصلة من بين خلال الخير نظرًا إلى حال السائل كأنه كان لا يصل رحمه فأمره به، لأنه المهم بالنسبة إليه، ويؤخذ منه تخصيص بعض الأعمال بالحض عليها بحسب حال المخاطب وافتقاره للتنبيه عليها أكثر مما سواها، إما لمشتقتها عليه، وإما لتسهيله في أمرها)^(٢).

(١) قواعد الأحكام ١/٥٦.

(٢) فتح الباري ٦/٤.

* وعقب ابن حجر على تنوع مواضيع البيعة التي يأخذها النبي ﷺ من أصحابه وممن يُسلم، فقال:

(كان النبي ﷺ أول ما يشترط بعد التوحيد: إقامة الصلاة، لأنها رأس العبادات البدنية، ثم أداء الزكاة، لأنها رأس العبادات المالية، ثم يعلم كل قوم ما حاجتهم إليه أمس، فبايع جريراً على النصيحة لأنه كان سيّد قومه، فأرشده إلى تعليمهم بأمره بالنصيحة لهم. وبايع وفد عبد القيس على أداء الخمس لكونهم كانوا أهل محاربة مع من يليهم)^(١).

وكرر هذا المعنى في تعليقه على أسئلة توجه للنبي ﷺ عن أي الأعمال أفضل، فيجيب بأجوبة مختلفة (ومحصل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث وغيره مما اختلفت فيه الأجوبة بأنه أفضل الأعمال: أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه، أو بما لهم فيه رغبة، أو بما هو لائق بهم، أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات بأن يكون العمل في ذلك الوقت أفضل منه في غيره، فقد كان الجهاد في ابتداء الإسلام أفضل الأعمال لأنه الوسيلة إلى القيام بها، والتمكن من أدائها، وقد تضافرت النصوص على أن الصلاة أفضل من الصدقة، ومع ذلك ففي وقت مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل)^(٢).

* ومن التناسب مع الظرف المحيط ما كانت عليه سياسة الثوري في التعليم.

قال عمرو بن حسان: (كان سفيان الثوري نعم المداوي: إذا دخل البصرة حدث بفضائل عليّ، وإذا دخل الكوفة حدث بفضائل عثمان)^(٣).

وهذا لأن الكوفة شيعية، والبصرة عثمانية.

ويرويه عطاء بن مسلم بلفظ آخر فيقول: (قال لي سفيان: إذا كنت في الشام فاذكر مناقب عليّ، وإذا كنت بالكوفة فاذكر مناقب أبي بكر وعمر).

(١) فتح الباري ٢/ ١٤٧.

(٢) فتح الباري ٢/ ١٤٩.

(٣) حلية الأولياء ٧/ ٢٧.

والرفق أو الإغلاظ نسبي كذلك

* وتشتهر الوصية بالرفق بين المربين، لكن أصوب السياسة التربوية: أن تكون نسبية بحسب حاجة الظرف أو المتربى، ولذلك ورد تأويل مزدوج للآية الكريمة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصاص: ٧٧].

قال القرطبي: (اختلف فيه:

فقال ابن عباس والجمهور: لا تضع عمرك في ألا تعمل عملاً صالحاً في دنياك، إذ الآخرة إنما يعمل لها، فنصيب الإنسان: عمره وعمله الصالح فيها. فالكلام على هذا التأويل: شدة في الموعظة.

وقال الحسن وقتادة: معناه: لا تضع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه، ونظرك لعاقبة دنياك.

فالكلام على هذا التأويل: فيه بعض الرفق به، وإصلاح الأمر الذي يشتهي، وهذا مما يجب استعماله مع الموعظة خشية النبوة من الشدة. قاله ابن عطية^(١).

* والشيخ القرضاوى يجرى مع الأشهر ويوجب الرفق، وينتبه إلى دققة لطيفة في الفرق بين الموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، حين جمعتها الآية الكريمة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَالِغِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. قال:

(وهنا نجد تفرقة في التعبير بين المطلوب في الموعظة والمطلوب في الجدال.

ففى الموعظة الحسنة اكتفى بأن تكون حسنة، أما في الجدال فلم يرض إلا أن يكون بالتى هى أحسن، بمعنى أنه إذا كان هناك أسلوبان، أو طريقتان: أحدهما حسنة، والأخرى أحسن منها وأفضل: فالمأمور أن تتبع التى هى أحسن.

وسر ذلك: إن الموعظة ترجع عادة إلى الموافقين الملتزمين بالمبدأ والفكرة، فهم لا يحتاجون إلا إلى موعظة تذكّرهم، وترقق قلوبهم، وتجلو صدادهم، وتقوى عزائمهم. على

(١) تفسير القرطبي ٣٢٦/١٣.

حين يوجه الجدل عادة إلى المخالفين، الذين قد يدفع الخلاف معهم إلى شيء من القسوة في التعبير، أو الخشونة في التعامل، أو العنف في الجدل، فكان من الحكمة أن يطلب القرآن اتخاذ أحسن الطرائق وأمثلها للجدال أو الحوار، حتى يؤتى أكله، ومن هذه الطرائق أو الأساليب: أن يختار المجادل أرق التعابير وألطفها في مخاطبة الطرف الآخر^(١).

✽ وكان أسلوب الإمام البنا يعث الثقة في النفوس، ويغرز الشعور بأهلية الإصلاح لدى التلميذ، لأن ظرفه وظرفنا الحال يستلزم ذلك، وما مشكلة المسلمين إلا فقدان هذه الثقة وهذا الشعور.

✽ بينما فترة أواخر الزمن العباسي، مثلاً: اتسمت بالانقسام المذهبي العنيف، وامتازت بشيوع البدع والتراجع السياسي والعسكري على الأغلب، واصطبغت شخصية الفرد المسلم في بغداد آنذاك بالتعقيد والاضطراب، ولذلك نجد أسلوب الشيخ عبد القادر الكيلاني أسلوباً عنيفاً تقرئياً استنكارياً حين يخاطب أهل بغداد، وذلك واضح في مجالسه الوعظية المثبتة في كتاب «الفتح الرباني والفيض الرحماني»، وكان أغلب خطابه لهم:

يا منافقون..... يا صخور...

إلى متى أناديكم وأنتم لا تستجيبون...

وكانوا يقبلون ذلك منه، لجلالة قدره، وظل أتباعه يزدون، حتى صار زعيم العامة في العراق، أو كما نقول اليوم «الزعيم الشعبي المطلق للمهم»، وما كان يفعل ذلك عن جهل بفنون التربية ولزوم الرفق، فإنه كان فقيهاً قدوة على الكعب، وإننا رأى وجوب المصارحة والتبكي، لعمق الانحراف، ولا تنفع ربة خفيفة على الكتف، وإنها يقتضي الأمر «نفضة» وهزة، بل وصفعة.

✽ وللغضب في الموعظة أصل سُنِّي، فقد كان رسول الله ﷺ «يغضب حتى يعرف الغضب في وجهه». كما روى البخاري.

من هنا نبه ابن حجر إلى: (مشروعية الغضب عند مخالفة الأمر الشرعي، والإنكار على الحاذق المتأهل لفهم المعنى إذا قصر في الفهم تحريضاً له على التيقظ)^(٢).

(١) الصوحة الإسلامية بني الاختلاف المشروع والتفرق المذموم / ١٤٧.

(٢) فتح الباري ١/ ٧٨.

* وبوب البخارى للغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره. وروى فيه قصة من سأل النبي ﷺ عن ضالة الإبل؟ (فغضب حتى احمرت وجنتاه، أو قال: احمر وجهه فقال: ومالك ولها؟ معها سقاؤها وحذاؤها، ترد الماء وترعى الشجر، فذرهما حتى يلقاها ربه).

قال ابن حجر: (إن الواعظ من شأنه أن يكون في صورة الغضبان، لأن مقامه يقتضى تكلف الانزعاج، لأنه في صورة المنذر. وكذا المعلم إذا أنكر على من يتعلم منه سوء فهم ونحوه، لأنه قد يكون أدعى للقبول منه، وليس ذلك لازماً في حق كل أحد، بل يختلف باختلاف أحوال المتعلمين)^(١).

* وفهم ابن حجر من دلالة بعض خطب النبي ﷺ (ترجيح التخويف في الخطبة على التوسع في الترخيص، لما في ذكر الرخص من ملاءمة النفوس لما جبلت عليه من الشهوة، والطبيب الحاذق يقابل العلة بما يضادها لا بما يزيدا)^(٢).

ولذلك مال الغزالي إلى ترجيح ميزان التخويف، واستشهد له بشواهد قرآنية^(٣).

قِلَّةُ فقه المؤمن ربما تعطل المساجد

وكما أن بعث المهمة وإيقاد جذوة الأمل هي في الأعم الأغلب أنفع في التربية من التبكيت والتفريع والتعنيف، فإن حمل التلاميذ على حسن ظنهم بأنفسهم وانتظار رحمة الله وعفوه ومغفرته لا بد أن يقترن بالتخويف إذا أراد المربي تخويف تلاميذه من عيوب النفس، كالتكبر والعجب بالنفس، والله در ابن القيم حين يقول:

(بين القلب وبين الرب مسافة، وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه، من كبر وإعجاب وإدلال، ورؤية العمل، ونسيان المنة، وعلل خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب، ومن رحمة الله تعالى: سترها على أكثر العمال، إذ لو رأوها وعانوها لوقعوا فيها هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسار، وترك العمل، وخمود العزم، وفتور

(١) فتح الباري ١/ ١٩٧.

(٢) فتح الباري ٣/ ١٨٥.

(٣) إحياء علوم الدين ١/ ٢٨٥.

الهمة. ولهذا لما ظهرت «رعاية» أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى واشتغل بها العباد عطلت منها مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة، والطبيب الحاذق يعلم كيف يطب النفوس، فلا يعمر قصرًا ويهدم مصرًا^(١).

ورعاية أبي عبد الله يعنى بها ابن القيم كتاب: «الرعاية لحقوق الله» للحارث المحاسبى، وإنما عابه ابن القيم وانتقده لأن المحاسبى رحمته الله قد اقتصر فيه على ذكر العيوب التى تمنع قبول الأعمال وأسرف فى ذلك، حتى عده ابن القيم من عوامل شك الناس فى إخلاصهم النية ومدى قبول أعمالهم، وتذكير المسلم لأخيه المسلم بموانع قبول العمل الصالح من مثل الكبر والعجب بالنفس سائغ ومقبول؛ لورود القرآن والسنة بذلك، لكنه حين يكون بإسراف، ودونها تذكير بعفو الله وبرحمته الواسعة التى تقابل تلك الموانع، فإنه يؤدى إلى نتيجة شنيعة، وهى ترك العمل الصالح نفسه يأسًا من قبوله، وهذا ما أشار ابن القيم إلى أنه حدث بعد صدور كتاب المحاسبى، أى فى أواسط القرن الثالث، والعهد على ابن القيم فى صحة وقوع ما أشار إلى وقوعه بين الناس آنذاك من ترك العمل بعد صدور هذا الكتاب، ولكن هذه الالتفاتة التربوية البارعة من ابن القيم رحمته الله جديرة بأن يضعها رجال التربية الإسلامية فى دستورهم، وتجاربنا الحاضرة تدل على صحتها، وبذلك تنتصب هذه الوصية معلمًا بارزًا من معالم نظرية الإدارة التربوية.

والسياسة التربوية التى هى أصوب من تخريب الحارث المحاسبى: أن ندعو أصحابنا إلى توبة، فإن باب المغفرة قريب، ويتوب الله على من تاب، وربع القرآن دعوة إلى التوبة، وهى طريقة الراشدين.

قال القرطبي:

(وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه افتقد رجلًا ذا بأس شديد من أهل الشام، فقليل له: تتابع فى هذا الشراب، فقال عمر لكاتبه: اكتب: من عمر إلى فلان: سلام عليك، وأنا أحمد الله إليك الذى لا إلا هو. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَمَّ﴾ ① تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ

اللَّهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾ [غافر]، ثم ختم الكتاب وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحبًا، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة.

فلما أتته الصحيفة: جعل يقرأها ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذرني عقابه، فلم يبرح يرددّها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النزع وحسنت توبته.

فلما بلغ عمره أمره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحدكم قد زل زلة، فسدوده، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه^(١).

بل من سياسة الراشدين أيضًا: تأخير الحكم على مسيء ارتكب إساءة قطعية، من أجل أن نعيّنه على أن يتوب.

ففي البخاري أن أبا بكر قال لو قد قبيلة بُزَاخة الذين اقترفوا الردة: (تتبعون أذناب الإبل حتى يرى الله خليفة نبيه ﷺ والمهاجرين أمرًا يعذرونكم به). فنزع سلاحهم، وهو ما كنى عنه أبو بكر بقوله: تتبعون أذناب الإبل، (لأنهم إذا نزع منهم آلة الحرب رجعوا أعرابًا في البوادي) (والذي يظهر أن المراد بالغاية التي أنظرهم إليها: أن تظهر توبتهم وصلاحتهم بحسن إسلامهم)^(٢).

وإنما فعل أبو بكر ذلك لأن التعزيرات من حقه كإمام.

قال الجويني: (والتعزيرات مفوضة إلى رأى الإمام، فإن رأى التجاوز والصفح تكرّمًا: فعل، ولا معترض عليه فيما عمل. وإن رأى إقامة التعزير تأديبًا وتهذيبًا فأراه المتبع.

وفي العفو والإقامة متسع.

والذي ذكرناه ليس تخييرًا مستندًا إلى التمنى، ولكن الإمام يرى ما هو الأولى والأليق

(١) تفسير القرطبي ٢٧٩/١٥.

(٢) فتح الباري ٣٣٧/١٦.

والأحرى، فرب عفو هو أوزع لكريم من تعزير، وقد يرى ما صدر عنه عثرة هي بالإقالة حرية، والتجاوز عنها يستحث على استقبال الشيم المرضية، ولو يؤاخذ الإمام الناس بهفواتهم: لم يزل دائبًا في عقوباتهم، وقد قال المصطفى ﷺ: اقبلوا ذوى الهيات عثراتهم^(١).

ولكن الفقه لا يوجب العفو عن سقطات النبلاء دائبًا، بل يجيز أن يخفف الإمام على البعض ويثقل على آخرين.

كمثل تغليظ العقوبة لأماثل الناس وذوى المنزلة فيهم، بأكثر مما يعاقب العامى، ويقاس على ذلك قدماء الدعاة وأهل الإمرة فيهم.

قال العز بن عبد السلام:

(تعذيب الأماثل على الإساءة: أشد من تعذيب الأراذل؛ لأن صدور المعصية منهم مع الإنعام عليهم والإحسان إليهم أقبح من صدورها من الأراذل.

* ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿بِنِسَاءِ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مَّبِينَةٍ يُضَعَّفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

* وإلى قوله: ﴿لَقَدْ كَذَبْتَ تَزَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾^(٧٦) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ [الإسراء].

* وإلى قوله: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾^(٧٧) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ^(٧٨) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ^(٧٩) [الحاقة].

وإنما كان ذلك لما يوجب على المنعم عليه المفضل من شكر إحسان المنعم المتفضل، فإذا قابل إحسانه بعصيانه كان ذلك أقبح من عصيان غيره، ولذلك قبحت معصية الوالدين وعقوقهما^(٨٠).

ويستطرد هذا الفقه حتى يصل الأمر بأمر الدعوة إلى أن يمنع الدعاة من مباح،

(١) الغيathi / ٢١٨.

(٢) قواعد الأحكام ١/ ٣٥.

قياساً على رأى الإمام مالك فى وجوب إذن الإمام لحيازة سلب القتيل الكافر فى الحرب، إذا رأى احتمال وقوع المجاهدين فى مكروه أو حصول مفسدة، مع أن النبى ﷺ قال - كما فى الصحيحين - : «من قتل قتيلاً فله سلبه».

قال القرافى :

(قال مالك : هذا تصرف من النبى ﷺ بالإمامة^(١)، فلا يجوز لأحد أن يختص بسلب إلا بإذن الإمام فى ذلك قبل الحرب، كما اتفق ذلك من رسول الله ﷺ .

وقال الشافعى : هذا تصرف من رسول الله ﷺ على سبيل الفتيا، فيستحق القاتل السلب بغير إذن الإمام، لأن هذا من الأحكام التى تتبع أسبابها كسائر الفتاوى^(٢) .

إذ (الغالب فى تصرفه ﷺ : الفتيا؛ لأن شأنه الرسالة والتبليغ).

وذكر القرافى أن من أسباب ما ذهب إليه مالك فى مسألة السلب هذه :

(أن إباحة هذا تفضى إلى فساد النيات، وأن يحمل الإنسان بنفسه على قرّنه من الكفار لما يرى عليه من السلب، فربما قتله الكافر وهو غير مخلص فى قتاله فيدخل النار، فتذهب النفس والدين، وهذه منزلة عظيمة تقتضى أن يترك لأجلها الحديث، لأن الأحاديث قد تترك للقواعد^(٣) لا سيما والحديث لم يترك، وإنما حملناه على حالة، وهو أن يجعل من باب التصرف بالإمامة، فإذا قاله الإمام صح).

(وذلك أن هذا القول منه ﷺ يتبادر للذهن منه إنما قاله ﷺ لأن تلك الحالة التى كانت: تقتضى ذلك، ترغيباً فى القتال.

فلذلك نقول: متى رأى الإمام ذلك مصلحة قاله، ومتى لا تكون المصلحة تقتضى ذلك لا يقوله، ولا نعى بكونه تصرفاً بالإمامة إلا هذا القدر^(٤) .

قال محقق الكتاب عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله :

(١) أى بصفته إماماً للمسلمين وليس بمجرد صفة الإفتاء.

(٢) الأحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام / ١٠٦ .

(٣) أى عملاً بقاعدة سد الذريعة، كما هو الأمر هنا، أو الضرورة.

(٤) الأحكام ١٠٧، ١٠٨ .

(زاد المؤلف في الفروق ١/ ٩٠٢: وسبب مخالفة مالك لهذا الأصل - أصل تغليب صفة الفتوى على أقوال النبي ﷺ - أمور؛ منها: أن ذلك ربما أفسد الإخلاص عند المجاهدين، فيقاتلون لهذا السلب دون نصر كلمة الإسلام. ومن ذلك أنه يؤدي أن يقبل على قتل من له سلب دون غيره، فيقع التخاذل في الجيش، وربما كان قليل السلب أشد نكاية على المسلمين).

فقه شغوف بتوزيع الحقوق

والحديث قد جر بعضه فصار ذكر العقوبة والمنع، وإنما هو الجرى مع منطق الفقه فحسب، وإلا فنحن دعاة لا قضاة، والأصل أن نمنح الحقوق لا أن نسلبها، وندع المقابل يرضى لا أن يسخط:

✱ حق الجميع في الرضا، وأن يجبر الأمير خواطر الكتلة الدعوية.

وفيه ما ذكرناه آنفاً من خطبة النبي ﷺ المشهورة في إرضاء الأنصار بعد يوم حنين، حين قال: «ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم. لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادى الأنصار وشعبها. الأنصار شعار، والناس دثار».

(إنما قال ﷺ ذلك تواضعاً منه وإنصافاً، وإلا ففي الحقيقة: الحجة البالغة والمنة الظاهرة في جميع ذلك: له عليهم، فإنه لولا هجرته إليهم وسكناه عندهم لما كان بينهم وبين غيرهم فرق، وقد نبه على ذلك بقوله ﷺ: «ألا ترضون» إلى آخره، فنبههم على ما غفلوا عنه من عظيم ما اختصوا به منه بالنسبة إلى ما حصل عليه غيرهم من عرض الدنيا الفانية^(١)).

✱ وحق المتقن في الاعتراف بإتقانه.

كما (ضرب الزبير بن العوام يوم الخندق عثمان بن عبد الله بن المغيرة بالسيف على مغفره، فقطعه إلى القربوس^(٢))، فقالوا ما أجود سيفك!

(١) فتح الباري ٩/ ١١٢.

(٢) أي مقدم السرج.

فغضب الزبير.

يريد أن العمل ليده لا لسيفه^(١).

والشاهد فيه عدم غمط المحق حقه، وليس ذلك من مدح النفس المكروه، فإن الزبير لم يبادئ، ولو أنهم سكتوا السكت، لكن لما حرّفوا الحق عن مواضعه: دافع.

* وحق الجندى والمنقذ والتلميذ في التشجيع.

لما في ذلك من باعث التحريك ومضاعفة السعى، إلا أن يكون باباً لغرور.

* قال النووي: (روينا في صحيح البخاري ومسلم عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه في حديثه الطويل في إغارة الكفار على سرح المدينة وأخذهم اللقاح وذهاب سلمة وأبى قتادة في أثرهم، فذكر الحديث إلى أن قال: قال رسول الله ﷺ:
كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة.

وفي هذا ما يدل على جواز ثناء الإمام على من ظهرت منه براعة في القتال^(٢).

* والثناء على التلميذ أو الجندى عند إسناد عمل له أمر جائز، فقد قال أبو بكر رضي الله عنه لزيد بن ثابت لما أراد منه جمع القرآن: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك^(٣).

* وقال الرسول ﷺ لصهيب رضي الله عنه لما دفع ماله لقريش ثمناً لهجرته: «ربح صهيب.. .. ربح صهيب»^(٤).

* وقال النووي معقّباً على قول الرسول ﷺ لوفد عبد القيس: «مرحباً بالقوم غير خزايا ولا الندامي»: (فيه استحباب قول الرجل لزمارة والقادمين عليه مرحباً ونحوه، والثناء عليهم إيناساً وبسطاً، وفيه جواز الثناء على الإنسان في وجهه إذا لم يخف عليه فتنة بإعجاب ونحوه، وأما استحبابه فيختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، وأما النهي

(١) المجالسة للدينوري ٨٠٣/٢. وأشار المحقق إلى أن الأثر في عيون الأخبار ٢٩/١، وسير الذهبى ٥١/١.

(٢) الأذكار للنووي ١٩٣/٧ وفتح الباري ٥٢٩/٧.

(٣) رواه البخاري والترمذي. التاج ٢٨/٤.

(٤) أخرجه ابن كثير في التفسير ٢٤٧/١، عن ابن مردويه.

عن المدح في الوجه فهو في حق من يخاف عليه الفتنة بما ذكرناه، وقد مدح النبي ﷺ في مواضع كثيرة في الوجه، فقال ﷺ لأبي بكر (رضي الله عنه): «لست منهم»^(١) ثم ذكر النووي وقائع أخرى مدح النبي فيها أبا بكر، وقوله لعلي: «أنت مني وأنا منك»، وقوله لبلال: «سمعت دق نعليك في الجنة».

* وقال النبي ﷺ لزيد بن ثابت بن الضحاك حين كان ينقل التراب في الخندق: أما إنه نعم الغلام^(٢).

* وقال نعم المرء سعد بن عباد^(٣).

* وقال لرشيد الفارسي (رضي الله عنه) في أحد: أحسنت يا أبا عبد الله^(٤).

* وقال عن قتال نسيبة المازنية يوم أحد: لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان^(٥).

* ونقل المقرئ عن مصنف أبي بكر بن أبي شيبة أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص والنفر الذين بعثهم معه لغزو حى من كنانة في الشهر الحرام فاختلفوا في جواز القتال: «أذهبتهم من عندي جميعاً وجئتكم متفرقين؟ إنما أهلك من كان قبلكم الفرقة، لأبعثن عليكم رجلاً ليس بخيركم، أصبركم على الجوع والعطش». قال سعد: فبعث علينا عبد الله بن جحش الأسدي، فكان أول أمير في الإسلام^(٦).

* وأخرج الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال للأشج، أشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»^(٧).

* وأخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن ابن عمر قال: كنت في سرية من سرايا

(١) شرح صحيح مسلم ١/١٩٥.

(٢) إمتاع الأسع للمقرئ ١/٢٢٢.

(٣) إمتاع الأسع ١/٢٦٣.

(٤) إمتاع الأسع ١/١٤٦.

(٥) إمتاع الأسع ١/١٤٩.

(٦) إمتاع الأسع ١/٥٩.

(٧) شرح صحيح مسلم ١/١٨٩.

رسول الله ﷺ ، فحاص الناس حيصة، وكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ويؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فتبنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كانت له توبة، وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: من القوم؟ فقلنا: نحن الفرارون!

قال: لا، بل أنتم العكارون، أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين، فأتيناه حتى قبلنا يده (١).

قال أحمد محمد شاكر في شرح المسند: إسناده صحيح، ورواه أبو داود وابن الجارود في المنتقى أيضًا، وقال ابن الأثير: حاصوا: أى جالوا جولة يطلبون الفرار. والعكارون: أى الكرارون في الحرب والعطافون نحوها.

* نقول: وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦] فيه زيادة تشريف للمؤمنين ومدح وتثبيت.

* ونقل ابن كثير عن ابن مُردويه أن النبي ﷺ أمر العباس يوم ولى المسلمون هاربون يوم حنين أن يناديهم: يا أصحاب الشجرة، يعنى أهل بيعة الرضوان، وفي رواية: يا أصحاب سورة البقرة (٢).

* وكما يشجع المربي التلميذ الواحد فإن عليه أن يشجع المجموع وبيعت في نفوسهم الحمية، حمية الإيمان، لا بالقول العادى فقط، بل بالكلام الأدبى من نثر أو شعر أيضًا. نعم.... الأدب جزء من سلاح المعركة لا يستغنى عنه.

إن الكثيرين لم يتفطنوا إلى ما فى سيرة النبي ﷺ من المعارك الأدبية الحماسية شعراً ونثراً.

فى عقب كل معركة: كانت ألسن شعراء المسلمين تنطق فخراً أو رداً على شعراء المشركين، وإذا بالحماسة تتواصل، والشعور بالعزة يزداد علواً، والنفوس تتحرك، والحزين يواسى، واليائس يأمل.

وما أحوجنا لمثل ذلك الأدب اليوم.

(١) المسند حديث ٥٣٨٤.

(٢) التفسير ٣٥/١.

✽ كان الرسول القائد ﷺ يحرص حسنًا على القول، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يضع لحسان منبرًا في المسجد يقوم عليه قائمًا يفاخر وينافح عن رسول الله ﷺ، ويقول رسول الله ﷺ: «إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما يفاخر أو ينافح عن رسول الله» (١).

✽ وكان عمر، القريب من القائد، يحرص حسنًا على هجو هند بنت عتبة.

✽ وعندما قال أبو سفيان في أحد: اعل هبل!؛ أمر النبي ﷺ عمرًا أن يصرخ:

الله أعلى وأجل... لا سواء... قتلانا في الجنة... وقتلاك في النار).

✽ وقال النبي ﷺ لعمر حين استنكر على كعب بن مالك إنشاد الشعر بين يدي الرسول وفي حرم الكعبة:

(خل عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل).

أى تؤلمهم أكثر من رشق النبل (٢).

كل هذا يحدث والقرآن ينزل غصًا طريًا، فكيف الآن؟

إن الذي يقرأ منا سيرة ابن هشام يجد صفحات طويلة من الشعر والنثر بعد ذكر كل معركة وغزوة، ولا يخرج أحدنا من تلك القراءة إلا بنتيجة واحدة هي أننا الآن بحاجة إلى هذا الأدب التربوي.

✽ ثم حق المتربى في أن يفسر له فعل المربي إذا لفه غموض.

✽ فقد رأى صحابيyan رسول الله ﷺ واقفًا مع امرأة: قال رسول الله ﷺ:

(إنها هي صفية بنت حبي).

فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكُبر عليهما.

(١) رواه الترمذى وأبو داود بسند صحيح. التاج الجامع للأصول ٥/٢٥٧.

(٢) رواه الترمذى بسند صحيح. التاج ٥/٢٥٨.

فقال النبي ﷺ: إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإنني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً).

قال ابن حجر: (فيه التحرز من التعرض لسوء الظن، والاحتفاظ من كيد الشيطان، والاعتذار).

قال ابن دقيق العيد: وهذا متأكد في حق العلماء ومن يقتدى بهم، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلاً يوجب سوء الظن بهم، وإن كان لهم فيه مخلص، لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم. ومن ثم قال بعض العلماء: ينبغي للحاكم أن يبين للمحكوم عليه وجه الحكم إذا كان خافياً، نفيّاً للتهمة^(١).

* وصلى رسول الله ﷺ التراويح يوماً في بيته ولم يخرج إلى المسجد، فلما أصبح قال: (لم يمنعني من الخروج إليكم إلا أنني خشيت أن تفرض عليكم).

قال ابن حجر: (فيه أن الكبير إذا فعل شيئاً خلاف ما اعتاده أتباعه أن يذكر لهم عذره وحكمه والحكمة فيه)^(٢).

* وحق التابع في أن يبدأ المتبوع الفعل ليقتنى.

فمن قصص المدارة التربوية ما أشارت به أم سلمة رضي الله عنها على النبي ﷺ بذبح الهدى قبل أصحابه لما رأهم أبطأوا عن الإسراع حين أمرهم بذلك لما حزنوا على ما كان من ظاهر شروط صلح الحديبية^(٣).

* وحق الغريب في أن يحفظ لنفسه حسن ظنه بنا.

كما قال ابن الجوزي:

(روينا عن إبراهيم بن أدهم أن أصحابه كانوا يوماً يتمازحون، فدقّ رجل الباب، فأمرهم بالسكوت والسكون، فقالوا له: تعلمنا الرياء؟ فقال: إني أكره أن يُعصى الله فيكم).

(١) فتح الباري ٥/ ١٨٥.

(٢) الفتح ٣/ ٢٥٦.

(٣) الفتح ٦/ ٢٧٥.

وذلك أن إبراهيم يعرف ما جمع هؤلاء من العمل والعبادة والجد، والمزاح القليل لا يضرهم، وأما الغريب فربما يظن أنهم يقضون كل أوقاتهم باللغو فيعتقد السوء فيهم، أو يقلدهم في المزاح دون العمل والتعبد فيفضل^(١).

* وحق المتربى في أن يستر المربى عيبه وسره.

قال ابن القيم:

(المفتى والمعبّر^(٢) والطبيب: يطلعون من أسرار الناس وعوراتهم على ما لا يطلع عليه غيرهم، فعليهم استعمال الستر فيما لا يحسن إظهاره)^(٣).
ويقاس عليه النقيب والأمير الدعوى.

* وحق البدوى النائى فى الصحراء أن نرسل إليه من يعلمه، ودعوتنا الإسلامية المعاصرة يجب أن تكون شاملة عريضة، فكما نضم الأستاذ الجامعى، والمهندس، والطبيب: نضم البدوى راعى الإبل، والنخوية فى دارنا باطلة.

(وعن ابن أبى غيلان قال: بعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن أبى مالك الدمشقى والحارث بن يمجّد الأشعرى يفقهان الناس فى البدو)^(٤).

* وحق المتأخر فى أن يتمتع بعاطفة أهل سبق.

(وذلك فى قوله عليه عليه الصلاة والسلام: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

قال ابن حجر: (قيل: خص المهاجر بالذكر تطييباً لقلب من لم يهاجر من المسلمين، لفوات ذلك بفتح مكة، فأعلمهم أن من هجر ما نهى الله عنه: كان هو المهاجر الكامل)^(٥).

(١) تلييس إبليس / ١٥٠.

(٢) أى معبر الرؤيا.

(٣) إعلام الموقعين ٤ / ٢٥٧.

(٤) الفقيه والمتفقه ٣٠٦.

(٥) فتح البارى ١٤ / ١٠١.

✽ وحق المحكوم عليه أن نرضيه ونمنحه تسليّة.

فلما أراد النبي ﷺ أن يغادر مكة بعد أن أدى العمرة القصية تبعته بنت حمزة ؓ وهي صبية، فتنازع حضانتها على وزيد بن ثابت، لأن النبي ﷺ كان آخى بينه وبين حمزة، وجعفر أخو علي، لأن خالتها كانت عنده، ؓ أجمعين، فحكم النبي ﷺ بالحضانة للخالة وقال: «الخالة بمنزلة الأم».

ثم استدرك وقال لعلي «أنت مني وأنا منك. وقال لجعفر: أشبهت خلقي وخلقي. وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا».

قال ابن حجر:

(فوقع منه ﷺ تطيب خواطر الجميع، وإن كان قد قضى لجعفر، فقد بين وجه ذلك، وحاصله أن المقضى له في الحقيقة: الخالة، وجعفر تبع لها) (١).

وهذه مهمة المفتي الدعوى بعد ما يرجح جانباً أن ينعطف فيمنح الآخر قولاً يؤنسه ويقلل أسفه.

✽ وحق الذي كسرناه أن نجبره.

قال القرطبي:

(قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي ؓ :

كان يقال زيد بن محمد، حتى نزل: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] فقال: أنا زيد ابن حارثة، وحرّم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمد. فلما نزح عنه هذا الشرف وهذا الفخر، وعلم الله وحشته من ذلك: شرفه. بخصيصه لم يكن يخص بها أحدًا من أصحاب النبي ﷺ، وهي أنه سمّاه في القرآن، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ نِّسْبَهَا وَطَرَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، يعني من زينب. ومن ذكره الله تعالى في الذكر الحكيم حتى صار اسمه قرآنًا يتلى في المحارب: نوّه به غاية التنويه، فكان في هذا تأنيس له وعوض من الفخر بأبوة محمد ﷺ له.

ألا ترى إلى قول أبي بن كعب حين قال له النبي ﷺ: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا»: فبكى وقال: أو ذكرت هنالك؟

وكان بكاؤه من الفرح حين أخبر أن الله تعالى ذكره، فكيف بمن صار اسمه قرآنا يتلى مخلدًا لا يبيد، يتلوه أهل الدنيا إذا قرءوا القرآن، وأهل الجنة كذلك أبدًا، ولا يزال على السنة المؤمنين، كما لم يزل مذكورًا على الخصوص عند رب العالمين، إذ القرآن كلام الله القديم، وهو باق لا يبيد، فاسم زيد هذا في الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة، تذكره في التلاوة السفرة الكرام البررة، وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبي من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضًا من الله تعالى له مما نزع منه.

وزاد في الآية أنه قال: «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه» أي بالإيمان، فدل على أنه من أهل الجنة، علم ذلك قبل أن يموت، وهذه فضيلة أخرى^(١).

* حتى لم ينس هذا الفقه الرائع العادل حق الفرحان بعمره في أن نشاركه فرحه، وإذا غبنا: نغيب بحجة فقهية.

قال ابن رجب الحنبلي: (إذا دعاه اثنان إلى وليمة عرس واستويا في الصفات المرجحة: أقرع بينهما)^(٢).

* وبمقابل هذه الحقوق: منح الفقه الأمراء والمربين حقوقًا مقابلة.

* مثل حق العالم الربى في أن يُلاطف.

فلما اختلف أبو ذر مع معاوية رضي الله عنه في اكتناز الذهب والفضة قال أبو ذر: «فكان بيني وبينه في ذلك، وكتب إلى عثمان رضي الله عنه يشكوني».

قال ابن حجر: (فيه ملاطفة الأئمة للعلماء، فإن معاوية لم يجسر على الإنكار عليه حتى كاتب من هو أعلى منه في أمره، وعثمان لم يحق على أبي ذر مع كونه كان مخالفًا له في تأويله)^(٣).

* وحق الربى في أن يسد باب الغرور في وجه تلامذته.

(١) تفسير القرطبي ١٤/١٨٨.

(٢) القواعد/ ٣٨٥.

(٣) فتح الباري ٤/١٧.

فعن ابن عباس قال: دخل عليّ بن أبي طالب على فاطمة يوم أحد فقال: خذى هذا السيف غير ذميم.

أى إشارة إلى أنه ضرب به كثيرًا، وفي بعض الروايات أنه مدح نفسه بأكثر من ذلك. فقال النبي ﷺ: «لئن كنت أحسنت القتال لقد أحسنه سهل بن حنيف وأبو دجانة سهاك بن خرشة»^(١).

وفي هذا إشارة إلى أن القائد يجب عليه ملاحظة مداخل الشيطان التي قد يدخل منها إلى قلوب جنوده، فيسد عليهم باب الغرور.

وعن أبي موسى الأشعري ؓ قال: سمع النبي ﷺ رجلًا يثنى على رجل ويطريه في المدحة، فقال: أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل. وذلك لأن الإسراف في المدح يؤدي إلى الغرور والتعالى.

وعن أبي بكرة ؓ قال: ذكر رجل عند النبي ﷺ فأثنى عليه رجل خيرًا، فقال النبي ﷺ: ويحك! قطعت عنق صاحبك. يقوله مرارًا، إن كان أحدكم مادحًا لا محالة فليقل: أحسبه كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك، وحسبى الله، ولا يزكى على الله أحدًا^(٢).

وقال صديق حسن خان أن من واجبات المعلم: (ألا يدع من نصح المتعلم شيئًا، وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها، والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى، ثم ينبهه على أن يطلب العلوم للقرب إلى الله دون الرياسة والمباهاة والمنافسة، ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن)^(٣).

وعلى كل، فإن النبي ﷺ مدح الكثير من الأصحاب كما أسلفنا، فيكون النهي منصرفًا إلى من يصيبه الغرور.

(١) إمتاع الأسماع ١/١٣٨، ومجمع الزوائد للحافظ الهيثمي ٦/١٢٣ وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواهما البخاري ومسلم.

(٣) أبجد العلوم ١/٧٩. متابعا للغزالي.

حق المؤمن في امتلاك قلب ساكن لا تقلقه الوسوس

ومن أظهر هذه الحقوق التي تعترف بها نظرية المداراة التربوية للمتربي: حقه في حيازة النفس المطمئنة التي لا يزعجها حديث الخطرات الشيطانية.

فكثيراً ما يتعرض المربي إلى مصادفة حالات عند إخوانه يثون له فيها أن خواطرهم أحياناً تتعرض لوسوسة شيطانية حول أمور العقيدة والإيمان، فينبغي له أن يتلطف في ذلك، ولا يهول لهم شأن هذه الوسوسة، ويحمل لهم ذلك على أنه من قوة الإيمان، ويأمرهم بالإعراض عن الخواطر الباطلة والالتجاء إلى الله تعالى في إزالتها ودفع شرها عنهم، فإنه أدعى إلى تخلصهم منها، وبهذا المعنى أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة قال:

جاء أناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذاك صريح الإيمان. وفي رواية أخرى عندما سئل عن الوسوسة فقال: تلك محض الإيمان.

قال النووي: (قوله ﷺ ذلك صريح الإيمان ومحض الإيمان معناه: استعظامهم الكلام به هو صريح الإيمان، فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً وانتفت عنه الريبة والشكوك).

ثم قال النووي: (وقيل معناه أن الشيطان إنما يوسوس لمن آيس من إغوائه، فينكد عليه بالوسوسة لعجزه عن إغوائه، وأما الكافر فإنه يأتيه من حيث شاء ولا يقتصر في حقه على الوسوسة بل يتلاعب به كيف أراد، فعلى هذا، معنى الحديث: سبب الوسوسة محض الإيمان، أو الوسوسة علامة محض الإيمان، وهذا القول اختيار القاضي عياض^(١)).

وقال القرطبي: (والصريح الخالص. وهذا ليس على ظاهره؛ إذ لا يصح أن تكون الوسوسة نفسها هي الإيمان، لأن الإيمان اليقين، وإنما الإشارة إلى ما وجدوه من الخوف من الله تعالى أن يعاقبوا على ما وقع في أنفسهم، فكأنه قال: جزعكم من هذا هو محض الإيمان وخالصه، لصحة إيمانكم، وعلمكم بفسادها. فسمى الوسوسة إيماناً لما كان دفعها والإعراض عنها والرد لها وعدم قبولها والجزع منها صادراً عن الإيمان)^(٢).

(١) شرح صحيح مسلم ١٥٤/٢.

(٢) تفسير القرطبي ٢٢١/٧.

(فالحواطر التي ليست بمستقرة ولا اجتلبتها الشبهة فهي التي تُدفع بالإعراض عنها، وعلى مثلها يطلق اسم الوسوسة) (١).

فهذا هو الطريق الصواب في معالجتها.

لكن ابتدع المحاسبي وغيره طريقة مخالفة، تجر المؤمن جرّاً إلى حديث الوسوسة، وتدع قلبه منزعجاً أشد الانزعاج، وهم يظنون أنهم بذلك يحسنون صنعاً وأن المؤمن سينقى قلبه مما قد يكون فيه من خواطر شيطانية، وقد كان غافلاً عنها وناسياً لها، وماشيّاً في درب الطاعات دون أن يلتفت إلى شيء اسمه وسوسة، فلما يقرأ ما كتبه عن الوسواس: يضطرب، ويبدأ يفكر بها، ويلبث مع التدقيق والفحص، فيصرف وقته في غير ما طائل، ويتعطل بذلك عن خير كثير يسير كان يؤديه بعفوية ويسترسل فيه على السجية، وهذا هو سر إنكار أحمد وأئمة السلف على هذه الطريقة الواهمة، إذ سئل الإمام أحمد (عن الوسواس والخطرات فقال: ما تكلم فيها الصحابة ولا التابعون) (٢).

وضرر هذا الإطناب في ذكر الوسواس والمهلكات ومحبطات الأعمال لا شك فيه، ولا بد من فتح بابي الرغبة والرغبة معاً، وذكر النعمة والرحمة معاً.

بل عدها الإمام القدوة أبو زرعة بدعة.

قال البردعي:

(سئل أبو زرعة عن المحاسبي وكتبه فقال للسائل: إياك، وهذه الكتب بدع وضلالات، عليك بالأثر، فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب.

قيل له: في هذه الكتب عبرة.

فقال: من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه عبرة.

بلغكم أن مالكا أو الثوري أو الأوزاعي أو الأئمة صنفوا كتباً في الخطرات والوسواس وهذه الأشياء؟

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٢٢٢.

(٢) مناقب أحمد لابن الجوزي / ١٧٩.

هؤلاء قوم قد خالفوا أهل العلم.

يأتونا مرة بالمحاسبى.

ومرة بعبد الرحيم الديلى.

ومرة بحاتم الأصم.

ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع^(١).

وقيل إن الحارث المحاسبى تاب مما انتقده عليه أحمد^(٢).

وعن محمد بن ريان قال: (سمعت ذا النون - وجاء أصحاب الحديث فسألوه عن

الخطرات والوساوس - فقال:

أنا لا أتكلم فى شىء من هذا، فإن هذا محدث. سلونى عن شىء فى الصلاة أو

الحديث)^(٣).

وهو ذو النون المصرى.

عشيرة الأحكام الشرعية البانية للشخصية الإسلامية

ويليق التذكير فى هذا الموضوع أن هذا الكتاب كتاب أصول وقواعد وأحكام وفتيا

واجتهاد، وليس هو كتاب عواطف وحاسة وأدب أو كتاب رأى تأملى محض يعتمد

التجريب الذاتى، وإنما نبحت هنا عن الدليل وعن مدارك الشرع ومنطق الفقه.

ولذلك ينعطف مبحث الإدارة بنا بعد ما تم استعراضها نحو التعرف على جبهة من

الأحكام الشرعية التى تحدد معالم الشخصية الدعوية الإسلامية وتبنى نموذجاً لداعية

ناجح فى حياته الإسلامية، يؤثر خيراً، وينتصب قدوة.

ونركز على عشر صفات، لكل صفة حكم شرعى يسندها ويبينها، منها:

* عدم الاعتداد بالقول الفقهى الشاذ.

(١) تهذيب التهذيب ٢/١٣٥. وكذلك تاريخ بغداد ٨/٢١٥.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/٥٢١.

(٣) تليس إبليس/١٧.

فالدعوة لم تلزم أعضائها باتباع مذهب معين في معاملاتهم الشخصية وعباداتهم، ولكن أمراء الدعوة لهم أن ينهوا داعية إذا اتبع قولاً شاذّاً في مسألة لفقّيه يخالف علماء الأمة وليست الفتوى عليه.

قال القرافي:

(إذا رأينا من فعل شيئاً مختلفاً في تحريمه وتحليله وهو يعتقد تحريمه: أنكرنا عليه، لأنه منتهك للحرمة من جهة اعتقاده. وإن اعتقد تحليله: لم ننكر عليه، لأنه ليس عاصياً، ولأنه ليس أحد القولين أولى من الآخر، ولكن لم تتعين المفسدة الموجبة لإباحة الإنكار. إلا أن يكون مدرك القول بالتحليل ضعيفاً جداً ينقض قضاء القاضي بمثله لبطلانه في الشرع)^(١).

وضرب له مثلاً: شارب النبيذ معتقداً مذهب أبي حنيفة.

وأقول: مثله أيضاً عندى المتعامل بالربا في دار الحرب، بل ومتبع فتوى شيخ الأزهر في تجويز الربا، فإنها شاذة، ومتبع الفتوى السريجية أو المفتى بها.

وقال القرافي أيضاً:

(كل شيء أفتى فيه المجتهد فخرجت فتياه فيه على خلاف الإجماع أو القواعد أو النص أو القياس الجلى السالم من المعارض الراجح: لا يجوز لمقلده أن ينقله للناس ولا يفتى به في دين الله تعالى، فإن هذا الحكم لو حكم به حاكم لنقضناه، وما لا نقره شرعاً بعد تقريره بحكم الحاكم أولى ألا نقره شرعاً إذا لم يتأكد، وهذا لم يتأكد فلا نقره شرعاً، والفتيا بغير شرع حرام، فالفتيا بهذا الحكم حرام، وإن كان الإمام المجتهد غير عاصٍ به بل مثاباً عليه لأنه بذل جهده على حسب ما أمر به، وقد قال النبي ﷺ: إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران، فعلى هذا يجب على أهل العصر تفقد مذاهبهم، فكل ما وجدوه من هذا النوع: يحرم عليهم الفتيا به، ولا يعرى مذهب من المذاهب عنه، لكنه قد يقل وقد يكثر.

غير أنه لا يقدر أن يعلم هذا في مذهبه إلا من عرف القواعد والقياس الجلى والنص الصريح وعدم المعارض لذلك، وذلك يعتمد تحصيل أصول الفقه والتبحر في الفقه، فإن القواعد ليست مستوعبة في أصول الفقه، بل للشريعة قواعد كثيرة جداً عند أئمة الفتوى والفقهاء لا توجد في كتب أصول الفقه أصلاً^(١).

ونحن نحب للداعية أن يكون تقياً نقيّاً، يسد الباب على حاسد يراقب ليصطاد سقطة يروجها.

*** والعدل في القول والفعل.**

لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]. قال الرازي:

(المفسرون حملوه على أداء الشهادة فقط، والأمر والنهي فقط).

لكنه استدرك فنقل عن القاضي عبد الجبار المعتزلي أنه قال:

(وليس الأمر كذلك، بل يدخل فيه كل ما يتصل بالقول، فيدخل فيه ما يقول المرء في الدعوة إلى الدين وتقرير الدلائل عليه، بأن يذكر الدليل ملخصاً عن الحشو والزيادة، بألفاظ مفهومة معتادة، قريبة من الإفهام ويدخل فيه أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واقعاً على وجه العدل من غير زيادة في الإيذاء والإيجاش، ونقصان عن القدر الواجب. ويدخل فيه الحكايات التي يذكرها الرجل لا يزيد فيها ولا ينقص عنها، ومن جملة تبليغ الرسالات عن الناس، فإنه يجب أن يؤديها من غير زيادة ولا نقصان)^(٢).

*** والانتصاب بين عائلته ورهطه وجيرانه كمصلح ومرجع وحكم.**

فإنه بإذن الله وافر العقل، ظاهر المروءة، ولا يليق أن يختفى ويستضعف نفسه، أو ما هو العكس: أن يتعالى عليهم ويفاصل ويغلظ، بل هو القائد لهم والأمير العرفي بلا إمرة، فهو واعظهم ومفتيهم وحلال مشكلاتهم، ويأتي كل ذلك بالساحة والبشر والرفق، وإذا اضطر إلى الكذب من أجل إصلاح ذات البين جاز له.

(١) الفروق ٢/ ١٠٩.

(٢) تفسيره ١٣/ ١٩٣.

وفي صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيراً أو يقول خيراً».

وزاد حديث آخر عند النسائي: الكذب فى الحرب، وفى حديث الرجل لامرأته.

قال ابن حجر:

(ذهبت طائفة إلى جواز الكذب لقصد الإصلاح، وقالوا: إن الثلاث المذكورة كالمثال. وقالوا: الكذب المذموم إنما هو فيما فيه مضرة أو ما ليس فيه مصلحة، وحملوا الكذب المراد هنا على التورية والتعريض، كمن يقول للظالم: دعوت لك أمس، وهو يريد قوله: اللهم اغفر للمسلمين، ويعد امرأته بعطية شيء، ويريد: إن قدر الله ذلك، وأن يظهر من نفسه قوة).

قال ابن حجر: (وبالأول جزم الخطابى وغيره. وبالثانى جزم المهلب والأصيلى وغيرهما) (واتفقوا على أن المراد بالكذب فى حق المرأة والرجل إنما هو فيما لا يسقط حقاً عليه أو عليها، أو أخذ ما ليس له أو لها. وكذا فى الحرب فى غير التأمين) (١).

* وأن يُحيى سنة التآخى، فإن الدعوة قائمة على أساس «الأخوة» أصلاً، وفى زمن الجفاء واللوم هذا تكون هذه الخصلة مضاعفة الأثر.

أخرج البخارى عن أبى جحيفة رضي الله عنه قال: آخى النبى ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء

قال ابن حجر:

(ذكر أصحاب المغازى أن المؤاخاة بين الصحابة وقعت مرتين: الأولى قبل الهجرة بين المهاجرين خاصة، على المواسة والمناصرة، فكان من ذلك أخوة زيد بن حارثة وحمة ابن عبد المطلب. ثم آخى النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار بعد أن هاجر، وذلك بعد قدومه المدينة).

(وذكر الواقدي أن ذلك كان بعد قدومه ﷺ بخمسة أشهر والمسجد يبنى، وقد

سمى ابن إسحاق منهم جماعة)، وكان ذلك (هو ابتداء الأخوة، ثم كان النبي ﷺ يؤاخي بين من يأتي بعد ذلك، وهلم جرا) ^(١).

وحكم هذه الأخوة مستمر، ما عدا التوارث، فإنه منسوخ، وقد أخرج البخاري في موضع آخر عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَلِكُلِّي جَعَلْنَا مَوْلِي﴾ [النساء: ٣٣] قال: (ورثة) وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ﴾ [النساء: ٣٣] قال: (كان المهاجرون لما قدموا على النبي ﷺ المدينة ورث المهاجر الأنصاري دون ذوى رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت ﴿وَلِكُلِّي جَعَلْنَا مَوْلِي﴾ [النساء: ٣٣] نسخت. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ﴾ [النساء: ٣٣]: إلا النصر والرفادة والنصيحة - وقد ذهب الميراث - ويوصى له) ^(٢).

وهذه الأخوة هي الحلف نفسه الذي كان في الجاهلية.

قال ابن حجر: (قال الخطابي: قال ابن عيينة: حالف بينهم أى آخى بينهم، يريد أن معنى الحلف في الجاهلية معنى الأخوة في الإسلام، لكنه في الإسلام جار على أحكام الدين وحدوده، وحلف الجاهلية جرى على ما كانوا يتواضعونه بينهم بأرائهم، فبطل منه ما خالف حكم الإسلام وبقي ما عدا ذلك على حاله) ^(٣).

ويليق للداعية أن يبالغ في أداء حقوق الإخاء وإحياء رسومه، ولعلك تعجب أن يبلغ الفقه والإفتاء مبلغ التفصيل في هذه الحقوق حتى شمل عدّ اللقمة عند الأكل وكمية الماء عند الاغتسال، وقد بين الفقهاء أن مقدار حقوق الأخوة الواجبة بين الدعاة من خلال انتسابهم للدعوة: إنما يجري في ذلك تحكيم العرف والمقدار المعقول.

قال العز بن عبد السلام:

(لو كان أحد الضيفان يأكل أكلة مثل عشرة أنفس، ورب الطعام لا يشعر بكثرة أكله، فهل يجوز له أن يأكل قدر شبعه؟

(١) فتح الباري ٤/ ٢٤٧.

(٢) فتح الباري ٤/ ٥٥٢.

(٣) فتح الباري ٤/ ٥٥٤.

قلت: لا يجوز له أن يتناول فوق ما يقتضيه العرف في مقدار الأكل، لانتفاء الإذن اللفظي والعرفي فيما جاوز ذلك.

وكذلك لو كان الطعام كثيرًا فأكل لقمًا كبيرًا مسرعًا في مضغها وابتلاعها حتى أكل أكثر الطعام ويحرم أصحابه: لم يجز له ذلك، لعدم الإذن العرفي واللفظي فيه، ولنهيه ﷺ عن القِران في التمر من غير إذن^(١).

وكذلك (دخول الحمامات والقياسير والخانات إذا فتحت أبوابها في الأوقات التي جرت العادة في الارتفاق بها فيها، فإنه جائز إقامة للعرف المطرد مقام صريح الإذن، ولا يجوز لداخل الحمام أن يقيم فيه أكثر مما جرت به العادة ولا أن يستعمل من الماء أكثر مما جرت به العادة، إذ ليس فيه إذن لفظي ولا عرفي، والأصل في الأموال التحريم ما لم يتحقق السبب المبيح)^(٢).

وهذه الأمثلة لا تراد لذاتها، فإن العلاقات التي بين الدعاة أجل وأعلى، وإنما أردناها لنقيس عليها غيرها مما يخفى أحيانًا ويسبب من المعاتبات الأخوية ما قد يتراكم ويفضى إلى برود وغيبة، ففي مثل هذه الإفتئات رادع للمعاتب ألا يطلب من الحقوق أكثر مما جرى به العرف، وألا يرهق إخوانه المؤمنين، فإن المروءة شعار الدعاة، وإنما يكلفون بها بالحسنى.

فلا تحقرن مثل هذه المباحث وتدعى الحياء من بحثها، أو تضحك منها، فإن المصارحة بذلك أولى، وفي أنماط بعض الدعاة غرائب سلوكية يجب أن نضبطها، وإن من عظمة الفقه الشرعي أن ينزل إلى مستوى بحث هذه الصغائر.

ومما يحدث في مجتمعنا التربوي تحابب اثنين من الدعاة تحاببًا أخويًا ظاهرًا وامتزاج روحيهما امتزاجًا قويًا، فيصطحبا أكثر وقتها، يقومان ويقعدان سوية أو يروحان ويحيثان. ومجرد هذا التحابب لا خطر منه ولا عيب فيه، بل كان في الصحابة من يؤثر عنه ذلك، كصحبة علي والمقداد بن الأسود الكندي رضي الله عنه، وتوادم سلمان الفارسي وأبي ذر رضي الله عنه.

(١) قواعد الأحكام ١١٢/٢.

(٢) الفروق ٢٥٢/٤.

إنما الخطر في أن تصرفهما هذه الصحبة عن الواجبات التي يكلف بها الجميع، أو أن تختلط مجالسهما بحديث غير ذي نفع وفيه لغو ومزاح.

والنصحية اللطيفة الرفيقة تنفع هؤلاء في الغالب، ولكن المعول عليه هو وضوح معاني الدعوة عندهما، ومجالات العمل النافع، فإن ذلك كفيل بإخراجهما إلى الجدل بالتدريج، ويفترقان عن بعضهما في زحمة تيار النشاط المتعدد الوجوه.

فالمربي إذن لا يحتاج إلا إلى الصبر تجاههما، يصبر على حالتها حتى تعالجهما الأيام، لا يستعجل بإخراجهما إلى الحزم فينفران.

إلا أن يكونا نواة تتجمع حولها عناصر تلتذ بالحديث معهما، فعندئذ يكون من حماية المجموعة أن تشدد في نصحتها إلى درجة الغلظة، أو تكلفها بعمل في مجال بعيد مكانه عن بقية الدعاة، لئلا تسرى العدوى وتعم البطالة.

*** والوقوف عند الحد السنّي في السلام والمصافحة.**

قال القرافي:

(قال رسول الله ﷺ: إذا تلاقى الرجلان فتصافحا تحاتت ذنوبهما، وكان أقربهما إلى الله أكثرهما بشراً).

فدل الحديث على مشروعية المصافحة عند اللقاء، وهو يقتضي أن ما يفعله أهل الزمان من المصافحة عند الفراغ من الصلاة بدعة غير مشروعة، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام ينهى عنه وينكره على فاعله ويقول: إنما شرعت المصافحة عند اللقاء^(١).

ولست آبه لهذا كثيراً، فإنه إن كان بدعة فهو بدعة جد صغيرة، ولكني آبه إلى الإسراف في المعانقة والتقبيل للرجال.

قال القرافي:

(المعانقة كرهها مالك، لأنها لم ترو عن رسول الله ﷺ، إلا مع جعفر، ولم يصحبها العمل من الصحابة بعده.

قال ابن رشد في كتابه البيان والتحصيل: ولأن النفوس تنفر عنها، لأنها لا تكون إلا لوداع من فرط ألم الشوق، أو مع الأهل.

ودخل سفيان بن عيينة على مالك فصافحه مالك وقال له: لولا أن المعانقة بدعة لعانقتك. فقال سفيان: عانق من هو خير مني ومنك: النبي ﷺ عانق جعفرًا حين قدم من الحبشة. قال مالك: ذلك خاص بجعفر. قال سفيان: بل عام، ما يخص جعفرًا يخصنا وما يعم جعفرًا يعمنا إذا كنا صالحين^(١).

أما التقبيل في الخد فقد كرهه مالك أكثر، ونقل جوازه عن ابن عمر، وفيه في الترمذي حديث حسن غريب.

ونقل القرافي عن ابن رشد قوله: (وأما القبلة في الفم من الرجل للرجل فلا رخصة فيها بوجه).

وكنّت فضلت الطريقة السودانية في المصافحة ووضع اليد الأخرى على الكتف، أو وضع اليد على الكتف قليلًا ثم المصافحة، ولكني لا أرى الدعاة يفعلونها، لغلبة العرف، وهم واهمون، وأحب - على الأقل - إن سلمت عليهم أن يتقبلوا طريقتي السودانية، وإن سلموا على: اتبعوها.

* وحفظ السر من المروءة، وبه يتبين تمام عقل الداعية وإنصافه، ومن كان من المذاييع فاعلم نقص عقله ورجولته، وهو بالنسوان أشبه.

وقد أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: (أسرّ إلى النبي ﷺ سرًّا فما أخبرت به أحدًا بعده).

قال ابن حجر:

(وقال ابن بطال: الذي عليه أهل العلم أن السر لا يباح به إذا كان على صاحبه منه مضرة، وأكثرهم يقول: إنه إذا مات لا يلزم من كتمانها ما كان يلزم في حياته إلا أن يكون عليه فيه غضاظة).

قلت: الذى يظهر انقسام ذلك بعد الموت إلى ما يباح، وقد يستحب ذكره ولو كره صاحب السر، كأن يكون فيه تزكية له من كرامة أو منقبة أو نحو ذلك، وإلى ما يكره مطلقاً، وقد يحرم، وهو الذى أشار إليه ابن بطلان، وقد يجب، كأن يكون فيه ما يجب ذكره كحق عليه كان يُعذر بترك القيام به فيرجى بعده إذا ذكر لمن يقوم به عنه أن يفعل ذلك^(١).

*** وإحياء ما يكاد أن يندرس من طاعة الوالدين وتوقير الكبير.**

حتى قال القرافى:

قال الأصحاب: لا يعصيهما فى الخروج للغزو إلا أن يتعين بمفاجأة العدو، أو يندرهما، فيتأخر السنة والستين، فإن أذنا له وإلا خرج^(٢).

ثم قال: و(قال الشيخ أبو الوليد الطرطوشى فى كتاب بر الوالدين: لا طاعة لهما فى ترك سنة راتبة، كحضور الجماعات وترك ركعتى الفجر والوتر ونحو ذلك إذا سألاه ترك ذلك على الدوام، بخلاف ما لو دعيه لأول وقت الصلاة: وجبت طاعتها وإن فاتته فضيلة أول الوقت).

وكان بر الوالدين فى الجليل الذى قبلنا أكثر عمراً، وتروى قصص عجيبة.

وأحب للداعية أن يفرّغ على ذلك: الإحسان للزوجة، والمبالغة فى الرفق بها، وإشعارها بالحنان، وبذل الاحترام لهما، ومفاجأتها بالهدايا، وفطم لسانه عن حديث حول زوجة ثانية إن لم يكن فاعلاً، وليعلم أن أهلها ما كانوا عاجزين عن إطعامها حين زواجه، وإنما أرادوا أن تقوم فى الأرض وفى مجتمع المؤمنين مودة جديدة.

*** وأن يروح النفس من صرامة الجد بالمباح والرياضة والنزهة والمغامرة وصعود الجبال واختراق الغابات والإيغال فى البحر وركوب الخيل، فإن فى كل ذلك تقوية للشخصية، وتجديداً للهمة، وقد وجدت أكثر الدعاة عن ذلك فى انصراف، ويظنون منافاة ذلك للواجب الدعوى أو للوقار.**

(١) فتح البارى ١١/ ٨٥.

(٢) الفروق ١/ ١٤٣.

وفي تفسير القرطبي ^(١) مبحث في سباق الخيل والمجن والنصل والركض، وأن كل ذلك سنة، حتى المراهنة بين الاثنين المتسابقين على مال جائزة شرعاً، فتأمل!! ولذلك كان الدعاة في خطأ حين أنكروا على شيوخ الخليج سباق المجن والزوارق والأشربة، وإنما الخطأ في إسراف مالى يصاحبها وفي إطعام النوق الطعام الغالى.

وكان الدعاة في الكويت إلى الوعى أسبق حين جعلوا تعلم الجودو والكاراتيه شرطاً في قبول انضمام الجديد. ولو يؤذن لى أن أختار شروط العضوية لجعلت تعلم السباحة وقيادة الدراجة النارية من جملة الشروط، وفي البلاد المتقدمة: أجعل تعلم استعمال الكمبيوتر شرطاً، وأوجب مسافات يقطعها الداعية راجلاً، وأخرى في قارب، وأن أوظف داعية يعلم أصحابه تفكيك الساعة والراديو والتليفون والتليفزيون ومحرك السيارة ثم تركيبها ثانية، وآخر معه تلسكوب يرى إخوانه تبعاً مواقع النجوم وأقمار المشترى وحلقة زحل وبعض المجرات والسدوم، ويروى لهم خبر السماء، في أشياء كهذه توسع المدارك وتفتح النفوس، وأما الطبقات المتقدمة فلا أكتفى بهذا، بل أدهمهم يتعلمون ركوب المناطيد الحرارية، والنزول بالبارشوت، وذلك متوفر في الغرب بالأجرة، وأرسلهم إلى جنوب شرق آسيا، لينحدروا مع تيار نهر في غابة مائة كيلو متر، وليغوصوا قرب جزيرة يتمتعون برؤية السمك الملون والمخلوقات البحرية العجيبة الأخرى، وكل ذلك أقيسه على سباق الخيل وأمثاله مما ورد في السنة الشريفة، وهذا هو وجه ارتباط هذا المبحث بكتاب أصولى فقهي.

* ثم يراعى الداعية زى الزمان في ملبسه ويكون عصرياً.

قال ابن حجر بعد سرد أقوال الفقهاء في لبس الأحمر - والأظهر جوازه -:

(الذى أراه جواز لبس الثياب المصبوغة بكل لون، إلا أنى لا أحب لبس ما كان مشبعاً بالحمرة، ولا لبس الأحمر مطلقاً ظاهراً فوق الثياب، لكونه ليس من لباس أهل المروءة في زماننا، فإن مراعاة زى الزمان من المروءة ما لم يكن إثماً، وفي مخالفة الزى ضرب من الشهرة) ^(٢).

ولسنا هنا بصدد تحقيق حكم لبس الأحمر، ولكننا نستل قاعدة أن مراعاة زى الزمان أليق بالداعية الذى يراعى المروءة، وأن اللباس جزء من شخصية الداعية.

(١) تفسيره ٩٧/٩.

(٢) فتح البارى ١٢/٤٢٤.

* وأجل جمال الشخصية الدعوية: الترنم بالعربية والتغنى بها لمن كان أعجمياً، فإنها لغة القرآن ولا يتم تذوقه له إلا بها، وهي لغة الفقه والفكر الإسلامى المعاصر، وكل زهد بالعربية أو كراهة التحدث بها فإنه منكر وبقية من تأثر قومي يجب على الداعية أن يبرأ منه، وقضية اللغة العربية ليست مثل قضايا اللباس والعادات التى يصح أن يكون فيها المرء قومياً محافظاً على تراثه، وإنما العربية جزء الفقه وبها يحصل كمال الإيمان، إذ من المحال أن يفهم القرآن كما يفهمه العربى مهما كانت الترجمة متقنة. وكلام ابن تيمية في هذا في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» كلام واف.

ويلحق بهذا المأخذ: مراعاة اللغة الشرعية في نصوصها الدعوية، فإن خطابنا جزء من شخصيتنا الإيمانية، ولا نعدل عنها إلا لضرورة أو مصلحة تبين زائد في المعنى، ولا بد أن نتداول الاصطلاح الشرعى المأثور الذى يكون علماً لنا في موضوعه، وقد علم النبي ﷺ أصحابه فقال: (لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم «المغرب»). قال: وتقول الأعراب: (هى العشاء)، وكذا تسمية العشاء: العتمة، مع أن النبي ﷺ استعمل لفظ العتمة، لكنه - عند النووي -: (خاطب بالعتمة من لا يعرف العشاء لكونه أشهر عندهم من العشاء، فهو لقصد التعريف لا لقصد التسمية) ^(١) ويعجبني قول ابن حجر أنه (لا بعد في أن ذلك كان جائزاً، فلما كثر اطلاقهم له: نُهوا عنه، لئلا تغلب السنة الجاهلية على السنة الإسلامية، ومع ذلك فلا يحرم ذلك بدليل أن الصحابة الذين رَووا النهي استعملوا التسمية المذكورة) ^(٢)، لكن الأمر لا يقتصر على هذا المصطلح العبادى، وإنما هى لغة شرعية عريضة يحتاجها إعلامنا الدعوى وتحتاجها كتاباتنا في زمن اختلاط يوهم السامع، بل في زمن تفوق للإعلام العلماني على إعلامنا، ولا بد أن نحفظ شخصيتنا عبر استعمال الاصطلاح الإسلامى، وأبرز ذلك إيراد اصطلاح الشورى بدل الديمقراطية، وبدون ذلك يضعف التميز الذى نحرض عليه، ويكون نزول عن استعلاء دعانا إليه سيئ. وبهذه العشارية: تقترب معانى المداراة التربوية من استيفاء التكامل التنظيري، سيما إذا اقترنت بمعانى منهجية التربية الدعوية.

* * *

(١) فتح البارى ٢/ ١٨٦.

(٢) تفسيره ٨/ ١٦٢.